الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٥٩ — ٢٠ يوليه سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 159.

Lundi - 20 - 7 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تلفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٥٩ « القاهرة فى يوم الاثنين أول جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ — ٢٠ يوليه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

«إلى صاحب السعادة المحافظ»

أمين افندى الحاوى (كاتب عمومى) له فى هذه الصناعة القدم الأولى والمكان المنفرد. حفظ فى صدر أيامه كتابَىْ: (إنشاء العطار، للمحبين والتجار)، و (أبدع الأساليب، فى العرائض والمكاتيب)، وهما كتابان يجمعان أعاجيب شتى مما يخطر للبُكم من أهل الهوى، ويعرض للجهال من ذوى الحاجة. ثم دخل الجندية فى (قرعة الخديو عباس)، وهى القرعة التذكارية التى طُلب فيها لِداتُه (للجهادية)؛ فكان يكتب لرفاقه الجنود رسائل الشوق والعشق والسلام كلَّ رسالة بنصف قرش. فلما خرج من الجيش العامل إلى (الرديف) سلك نفسه فى نظام (البوليس) تسع سنين كوامل، ازداد فيها علماً بطرائق النظام وطوائف الحكام وأحوال المجتمع؛ وكان من الممكن أن يتقلب فى نعيم الشرطة مدة أطول، لو لا أن خيرها الدفّاق فى يده من الشوارع والحوانيت قد فاض على جسمه فتراكب لحمه، وتدلى بطنه، واستفاض فيه الشحم حتى كاد ينقطع قيامه، فلم يكن بد من الحكم عليه بهذه الحجة القائمة على طِماح عينه، وطول يده، وقعود همته؛ فخرج إلى حياة (التحرير)، وهى منذ شب حديث عبقريته ومطامح أمانيه، واتخذ له مكتباً تحت السماء أمام (سراى المحافظة)، وألقى حيله الموهوبة والمكسوبة فى غمرة الحياة وزحمة العيش، فعادت له بالشهرة الرابحة فى دنيا القضايا والشكايا والسمسرة. فكانت العريضة أو الرسالة أو (الكمبيالة) التى يحررها الحاوى، أملاً لحرفائه فى ضمان الفوز، ومثلاً لزملائه فى فن

فهرس العـــدد

الكتابة . ثم تدخّل فى زوايا البيوت ، وتغلغل فى طوايا السرائر ، وتبسّط على موائد الانس ، وتفنن فى أساليب الوساطة ؛ فكان دليل « الخاطب » ، ونديم الشارب ، وسلوة المحزون ، وسمسار المشترى ، ووكيل المدعى ، وسفير الخصوم ، ورسول الأحبة .

تراه أكثر النهار على مقعده الخشبى الضيق فى جلباب فضفاض من الكستور المخطط ، ومعطف رقيق من النسيج المهلهل ، ورغائب الناس تنثال عليه انثيال النحل العاسلة على الخلية الضخمة : هذا صاحب مظلمة يريد عرض حال ، وذاك طالب مصلحة يتلمس طريق المسعى ، وتلك زوجة هاجر أو حبيبة فاجر تطلب المعونة من قلمه أو لسانه ، وهذا رافع دعوى يرغب توكيل شام ، وذلك زميل عجلان يطلب كلمة لغوية أو جملة نحوية يزين بها رسالته الغالية الثمن (لزبونته) الرفيعة القدر ، وأمين الأريب فى يده قلم ، وفوق أذنه قلم ، وعلى شفته بسمات تتعاقب مختلفات فى السمة واللون والدلالة ، يتلقى كل طالب برغبته ، وكل سائل بجوابه . وهو بعد ذلك لكثرة ما يغشى بيوت الناس عارف بأحاديث الأسر ، عالم بأحداث المجامع ، خبير بألوان المطاعم ؛ فعنده قصة كل زوجين ، وخبر كل صديقين ، وخصيصة كل صحفة من صحاف المائدة ؛ فالقرع شفاء من كل داء ، والرز نصيب الأرض من حقول السماء ؛ وفى الكبد خروق لا تسدها إلا الملوخية ، وفى الجسم عروق لا يُنبضها إلا الكنافة

***

من عادة أمين افندى أن يزورنا كما يزور غيرنا حيناً بعد حين ، فيمتّعنا ساعة بأخباره وأسراره ونوادره ، ثم ينصرف وتحت إبطه رزمة مما تكدس عندنا من المجلات المقروءة . دخل علينا أمس جاداً على غير عادته ، وقوراً على خلاف طبعه ؛ ولم يكد يلقى التحية حتى ألقى إلىّ فى شىء من الزهو صحيفة مسطرة من ورق (العرائض) وفى رأسها بقلم الثلث : (إلى صاحب السعادة المحافظ) ، وفى ذيلها بقلم الرقعة : (ابن الحاوى) ، وقال :

كتاب مفتوح إلى سعادة المحافظ عن طريق الرسالة . أتنشره أم تطويه ؟

فقلت له : وماذا تريد من سعادة المحافظ يا أمين افندى ؟

فقال : قرأت فى الصحف أنه ألغى (مصايف الأطفال) ، فهزنى الخبر ، وملكتنى شهوة الكلام ، فكتبت إليه هذا الكتاب أريد منه أن يضيف نقطة من بحر كرمه إلى (مصايف) ، فتصبح بفضله (مضايف) ! والكتاب بين يديك فاقرأ

قرأت الكتاب فى غَمْر من أحاسيس شتى تتلون تباعاً بالاعجاب والانكار ، والحزن والضحك ، والانفعال والتبلد ؛ ثم قلت له : إنى أقبل كتابك موضوعاً وأرفضه شكلا ، لأنك عرفت كيف تفكر ، ولم تعرف كيف تعبر ؛ ولغة الدواوين وأسلوب (العرائض) لا يدخلان من أبواب الرسالة ؟

فقال وقد طفى فى وجهه الدم ، ونزا فى رأسه الغضب ، وانتشر على شفتيه شاربه الأزرق : كيف ! لقد حفظت الكفراوى ، ولزمت الشيخ عليش ، وصحبت الشيخ رشيد ، وجادلت الأستاذ وجدى ، وقضيت فى (التحرير) أربعين عاماً ! أفتجابهنى بعد ذلك بأننى لا أعرف كيف أكتب ؟ ! فقلت له : هون عليك ! سأكتب لك هذا الكتاب بلغة المجلات فان أعجبك أمضيته . ثم شرعت أكتب : « صاحب السعادة محافظ القاهرة :

« يتقدم اليك بهذه الكلمة والد فقير كابد من نصب العيش وعنت البؤس وتربية الأولاد ما جعله مثلاً صحيحاً لآلام طبقته . إنك ألغيت (مصايف الأطفال) فألغيت حقاً كسبه الفقير من الغنى ، وأخذته العامة من الخاصة . كان هذا الحق لنقصه وقصوره كنظرة أهل النار إلى أهل الجنة يضاعف ألم الحرمان ويجسم شقاء البؤس ، ولكنه على أية حال كان ترضية لكرامة الشعب

ولقد كان فى نفسى أن أطلب الى وزارة الأمة أن تجعل المصايف مضايف تؤوى شرداء الطفولة وطرداء الفاقة ، فتنقلها بذلك من الخصوص الى العموم ، وتحولها من تملق الكمال إلى معالجة الضرورة . فأفاريز الشوارع وأفواه الطرق وزوايا الأبنية مغطاة فى الليل القارس القاسى بجسوم اليتامى والهمل من أطفال القاهرة ، تترعرع فى أحضانهم القذرة أغراس الرذيلة ، وتتكاثر على روائحهم الكريهة جراثيم المنكر ، والملاجئ وحدها علاج هذه الحال الأليمة . فاذا كان هذا الالغاء لسد هذا الخلل وإصلاح هذا الفساد ، فما عدوت الصواب ولا أخطأت الحزم ؛ وأما ان كان لقلة المال أو ضعف الرغبة فقد قضيت على فكرة جميلة واعتديت على حق مقدس . . . » . . .

وكان أمين قد سكت عنه الغضب ، فنظر فيما أكتب ثم قال منفعلاً : ما هذا ؟ أين (الديباجة) ؟ وأين ما يجب لمثل هذا العظيم من عبارات التفخيم ؟ أرجو ألا تكمل ! سآخذ كتابى وأسلمه الى الباشا يداً بيد ! فقلت له : أرحتنى أراحك الله ! وسلمته الكتاب يداً بيد ، ثم صافحته يداً بيد . وخرج الحاوى وأنا أرجح أنى كسبت عدواً جديداً من جراء النشر فى الرسالة

احمد حسن الزيات

أحلام في قصر [1]

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كان فلانُ بن الأمير فلان يتنبّلُ في نفسه بأنه مشتقٌ ممن يضع القوانين لا ممن يخضع لها ، فكان تيّاهاً صلِفاً يشمَخُ على قومه بأنه ابن أمير ، ويختال في الناس بأن له جدّاً من الأمراء ، ويرى من تَجبُّره أن ثيابه على أعطافه كحدود المملكة على المملكة لأن له أصلاً في الملك

وكان أبوه من الأمراء الذين وُلدوا وفي دمهم شعاعُ السيف وبريق التاج ، ونخوةُ الظفر ، وعزُّ القهر والغلبة ؛ ولكن زمنه ضربَ الحصارَ عليه ، وأفضت الدولةُ إلى غيره فتراجعت فيه ملكاتُ الحرب من فتح الأرض إلى شراء الأرض ، ومن تشييد الامارات إلى تشييد العمارات ، ومن إدارة معركة الأبطال إلى إدارة معركة المال ؛ وعَبَر دهرَه يملك ويجمع حتى أصبحت دفاتر حسابه كأنها (خريطة) مملكة صغيرة

وبعض أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولاد أمراء فيكونون من التكبر والغرور كأنما رضوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدنيا ولكن بشروط ....

***

وانتقل الأمير البخيل إلى رحمة الله ، وترك المال وأخذ معه الأرقام وحدها يحاسَب عنها ، فورثه ابنه وأمرَّ يدَه في ذلك المال يبعثره ؛ وكانت الأقدار قد كتبت عليه هذه الكلمة : غير قابل للاحسان . فمحتها بعد موت أبيه ، وكتبت في مكانها هذه الكلمة : يُجمع للشيطان

أما الشيطان فكان له عمل خاص في خدمة هذا الشاب ، كعمل خازن الثياب لسيده ، غير أنه لا يلبسه ثياباً بل أفكاراً وآراءً وأخيلةً . وكان يجهد أن يُدخل الدنيا كلها إلى أعصابه ليخرج منها دنيا جديدة مصنوعة لهذه الأعصاب خاصة ، وهي أعصاب مريضة ثائرة متلهبة لا يكفيها ما يكفي غيرها فلا تبرح تسأل الشيطان بين الحين والحين : ألا توجد لذة جديدة غير معروفة ؟ ألا يستطيع ابليس القرن العشرين أن يخترع لذة مبتكرة ؟ ألا تكون الحياة إلا على هذه الوتيرة من صبحها لصبحها ؟

كان الشاب كالذي يريد من إبليس أن يخترع له كأساً تسع نهراً من الخمر ، أو يجد له امرأة واحدة وفيها كل فنون النساء واختلافهن . وكان يريد من الشيطان أن يعينه في اللذة على الاستغراق الروحاني ويغمره بمثل التجليات القدسية التي تنتهي اليها النفس من حِدَّة الطرب وحدَّة الشوق ؛ وذلك فوق طاقة إبليس ، ومن ثم كان معه في جهد عظيم حتى ضجر منه ذات مرة فهمَّ أن يرفع يدَه عنه ويدعه يدخل إلى المسجد فيصلي مع بعض الأمراء الصالحين

وهؤلاء الفُسّاقُ الكثيرو المال إنما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا ، فهمُّهم دائماً الألذُّ والأجمل والأغلى ؛ ومتى انتهت فيهم اللذة منتهاها ولم تجد عاطفتُهم من اللذات الجديدة ما يسدُّها ضاقت بهم فظهرت بمظهر الذي يحاول أن ينتحر . وذلك هو الملل الذي يُبتلون به .. والفاسق الغني حين يمل من لذاته يصبح شأنه مع نفسه كالذي يكون في نفق تحت الأرض ويريد هناك سماءً وجواً يطير فيهما بالطيارة . . .

***

قالوا : واعترض ابنَ الأمير ذات يوم شحاذٌ مريض قد أسنَّ وعجز يتحامل بعضه على بعض ، فسأله أن يحسن إليه وذكر عَوَزه واختلاله وجعل يَبثُّه من دموعه وألفاظه . وكان إبليس في تلك الساعة قد صرف خواطر الشاب إلى إحدى الغانيات المتمنعات عليه وقد ابتاع لها حلية ثمينة اشتطَّ بائعها في الثمن حتى بلغ به عشرة آلافِ دينار ، فهو يريد أن يهديها إليها كأنها قدَرٌ من قادر . . . وقطع عليه الشحاذ المسكين أفكاره المضيئة في الشخص المضيء فكان إهانةً لخياله السامي ... ووجد في نفسه غضاضةً من رؤية وجهه واشمأز في عروقه دمُ الامارة وتحركت الوراثة الحربية في هذا الدم

ثم ألقى الشيطانُ إلقاءَه عليه ، فاذا هو يرى صاحب الوجه القذر كأنما يتهكم به يقول له : أنت أمير يبحث الناسُ عن الأمير الذي فيه فلا يجدون إلا الشيطان الذي فيه . وليس فيك من الامارة إلا مثلُ ما يكون من التاريخ في الموضع الأثريّ الخرب . ولن تكون أميراً بشهادة عشرة الآلاف دينار عند مومس ، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير .

(١) كتبنا مقالة (أحلام في الشارع) وهي في السنة الثانية من الرسالة

أنت أمير ، فهل تثبت الحياة أنك أمير أو هذا معنى فى كلة من اللغة ؟ إن كانت الحياة فأين أعمالك ، وإن كانت اللغة فهذه لفظة بائدة تدل فى عصور الانحطاط على قسط حاملها من الاستبداد والطغيان والجبروت ، كأن الاستبداد بالشعب غنيمة يتناهبها عظماؤه ، فقسم منها فى الحاكم وقسم فى شبه الحاكم يترجم عنه فى اللغة بلقب أمير

ألا قل للناس أيها الأمير : إن لقبى هذا إنما هو تعبير الزمن عما كان لأجدادى من الحق فى قتل الناس وامتهانهم

* * *

وكان هذا كلاماً بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير فى حالة بخصوصها من أحوال النفس ، فلا جرم أهين الشحاذ وطرد ومضى يدعو بما يدعو

ونام ابن الأمير تلك الليلة فكانت خيالته (١) من دنيا ضميره وضمير الشحاذ : فرأى فيما يرى النائم أن ملكا من الملائكة يهتف به :

ويلك ! لقد طردت ذلك المسكين تخشى أن تنالك منه جراثيم تمرض بها ، وما علمت أن فى كل سائل فقير جراثيم أخرى تمرض بها النعمة ؛ فان أكرمته بقيت فيه وإن أهنته نفضها عليك . لقد هلكت اليوم نعمتك أيها الأمير واسترد العارية صاحبها وأكلت الحوادث مالك فأصبحت فقيراً محتاجاً تروم الكسرة من الخبز فلا تتهيأ لك إلا بجهد وعمل ومشقة ؛ فاذهب فاكدح لعيشك فى هذه الدنيا فما لأبيك حق على الله أن تكون عند الله أميراً

قالوا : وينظر ابن الأمير فاذا كل ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المال ، وإذا الامارة كانت وهماً فرضه على الناس قانون العادة ، وإذا التعاظم والكبرياء والتجبر ونحوها إنما كانت مكراً من المكر لاثبات هذا الظاهر والتعزز به . وينظر ابن الأمير فاذا هو بعد ذلك صعلوك أبتر معدم رث الهيئة كذلك الشحاذ ، فيصيح مغتاظاً : كيف أهملتنى الأقدار وأنا ابن الأمير ؟

قالوا : ويهتف به ذلك الملك : ويحك إن الأقدار لا تدلل أحداً لا ماكا ولا ان ملك ولا سوقياً ولا ابن سوق ، ومتى صرتم جميعاً إلى التراب فليس فى التراب عظم يقول لعظم آخر : أيها الأمير

* * *

قالوا : وفكر الشاب المسكين فى صواحبه من النساء وعندهن شبابه وإسرافه ، ونفقاته الواسعة فقال فى نفسه : اذهب لاحداهن ؛ وأخذ سمته إليها فما كادت تعرفه عيناها فى أسماله وبذاذته وفقره حتى أمرت به فجر بيديه ودفع فى قفاه . ولكن دم الامارة نزا فى وجهه غضباً وتحركت فيه الوراثة الحربية فصاح وأجلب واجتمع الناس عليه واضطربوا وماج بعضهم فى بعض . فبينا هو فى شأنه حانت منه التفاتة فأبصر غلاماً قد دخل فى غمار الناس فدس يده فى جيب أحدهم فنشل كيسه ومضى

قالوا : وجرى فى وهم ابن الأمير أن يلحق بالغلام فيكبسه كبسة الشرطى وينتزع منه الكيس وينتفع بما فيه ، فتسلل من الزحام وتبع الصبى حتى أدركه ، ثم كبسه وأخذ الكيس منه وأخرج الكنز فاذا ليس فيه إلا خاتم وحجاب وبعض خرزات مما يتبرك العامة بحمله ومفتاح صغير . . .

فامتلأ غيظاً وفار دم الامارة وتحركت الوراثة الحربية التى فيه . وألم الصبى بما فى نفسه وحدس على أنه رجل أفاق متبطل لا نفاذ له فى صناعة يرتزق منها ، فرثى لفقره وجهله ودعاه إلى أن يعلمه السرقة وأن يأخذه إلى مدرستها . وقال : إن لنا مدرسة فاذا دخلت القسم الاعدادى منها تعلمت كيف تحمل المكتل (١) فتذهب كأنك تجمع فيه الخرق البالية من الدور حتى إذا سنحت لك غفلة انسللت إلى دار منها ، فسرقت ما تناله يدك من ثوب أو متاع ، ولا تزال فى هذا الباب من الصنعة حتى تحكمه ، ومتى حذقته ومهرت فيه انتقلت إلى القسم الثانوى . . .

فصاح ابن الأمير : أغرب عنى ، عليك وعليك ، أخزاك الله ! والمن الله الاعدادى والثانوى معاً

ثم إنه رمى الكيس فى وجه الغلام وانطلق ، فبينا هو يمشى وقد توزعته الهموم أنشأ يفكر فيما كان يراه من المكدين وتلك العلل التى ينتحلونها للكدية كالذى يتعامى والذى يتعارج والذى يحدث فى جسمه الآفة ؛ ولكن دم الامارة اشمأز فى عروقه

(١) الخيالة : ما يتراءى للنائم من الأشباح فى نومه

(١) هو كالقفة يعمل من الخوص

وتحركت فيه الوراثة الحربية ؛ وبَصر بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعرَّض لمعروفه وأفضى إليه بهمّه وشكا ما نزل به ثم قال : وإني قد أمّلتك وظني بك أن تصطفيني لمنادمتك أو تلحقني بخدمتك ، وما أريد إلا الكفاف من العيش ، فان لم تبلغ بي فالقليل الذي يعيش به المُقِلّ . وصعّد فيه الشاب وصوّب ثم قال له : أتحسن أن تلطُف في حاجتي ؟ قال : سأبلغ في حاجتك ما تحب . قال الشاب : ألك سابقة في هذا ؟ أكنت قوّاداً ؟ أتعرف كثيرات منهن . . . . ؟

فانتفض غضباً وهمّ أن يبطش بالفتى لولا خوفه عاقبة الجريمة ، فاستخذى ومضى لوجهه ، وكان قد بلغ سوقاً فأمّل أن يجد عملاً في بعض الحوانيت ، غير أن أصحابها جعلوا يزجرونه مرة ويطردونه مرة ، إذ وقعت به ظِنَّةُ التلصُّص ، وكادوا يسلمونه الى الشرطي فمضى هارباً وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسه ودهره وامارته وبؤسه جميعاً

قالوا : ومر في طريقه الى مصرعه بامرأة تبيع الفُجل والبصل والكرات وهي بادنة وضيئة ممتلئة الأعلى والأسفل ، وعلى وجهها مسحة إغراء ، فذكر غزله وفتنته واستغواءه للنساء ، ونازعته النفس ، وحسب المرأة تكون له معاشاً ولهواً ، وظنها لا تعجزه ولا تفوته وهو في هذا الباب خرّاجٌ ولاّجٌ منذ نشأ ، غير أنه ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطمة أظلم لها الجو في عينيه ، ثم هرّت في وجهه هريراً منكراً واستَعْدَت عليه السابلة فأطافوا به وأخذه الصفع بما قدم وماحدث ، ومازالوا يتعاورونه حتى وقع مغشياً عليه

ورأى في غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب فضُرب وحُبس وابتلى بالجنون وأرسل الى المارستان وساح في مصائب العالم وطاف على نكبات الأمراء والسُّوقة بما يعي وما لا يعي ، ثم رأى أنه قد أفاق من الاغماء فاذا هو قد استيقظ من نومه

* * *

ويا ليت من يدري بعد هذا ! أغدا ابنُ الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يحسن إليهم ، أم غدا على صاحبته التي امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار ؟

يا ليت من يدري ! فان الكتاب الذي نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئاً بل قطع الخبر عند ما انقطع الصفع .....

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

فوز نسوي جديد

ملكات ووزيرات
بين الماضي والحاضر
للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ فجر التاريخ استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك وأن تحكم الشعوب ؛ وهي ما زالت تتبوأ الملك وتحكم الشعوب في عصرنا

ويقدم الينا التاريخ منذ العصور الغابرة نبتاً حافلاً من ملكات عظام شغلن عروشاً خطيرة ، وألقيت اليهن مصاير أمم وشعوب عظيمة ، وقمن بتدبير الملك وقيادة الجيوش ؛ ففي مصر الفرعونية ، وفي مملكة سبأ ، وفي تدمر ، يتبوأ الملك نساء قويات العزم والشكيمة ؛ وفي مصر أيضاً نرى ملكة رائعة الحسن هي كليوباترا تحاول رد الغزو الروماني عن مصر ، وتفتدي الهزيمة بالحياة ؛ ثم نرى في عصر الاسلام ملكة مصرية هي شجرة الدر تنظم شؤون الدفاع عن مصر إزاء الخطر الصليبي ؛ ونرى في الغرب ، وفي العصر الحديث ، عدة من الملكات العظيمات يسهرن على مصاير أعظم الأمم الأوربية مثل ايزابيلا ملكة قشتالة ، وماري تيودور واليصابات ملكتا انكلترا ، وكاترين الكبرى امبراطورة روسيا ، وماريا تريزا امبراطورة النمسا

وفي أيامنا تتبوأ عرش هولندة أميرة عظيمة هي الملكة ولهلمينا ؛ بيد أنه من غرائب الاتفاق ومفارقات الحوادث أن المرأة التي وصلت منذ العصور الغابرة إلى تبوء العروش وقيادة الدول ما زالت تناضل في عصرنا للحصول على أبسط الحقوق العامة التي يتمتع بها الرجل ، فاذا ظفرت ببعض هذه الحقوق في بلد من البلاد اعتبر ذلك فوزاً عظيماً لقضيتها

وقد وقع أخيراً في فرنسا حادث يعتبر فوزاً عظيماً للحركة النسوية ؛ ففي الوزارة الفرنسية الجديدة التي يرأسها زعيم الاشتراكية الفرنسية ، مسيو ليون بلوم ثلاث نساء يشغلن مراكز الوزارة ، وهن مدام سيسيل برونشفيج إحدى زعيمات الحركة النسوية الفرنسية ، ومدام ايرين كوري العالمة الكيميائية

الشهيرة ، ومدام سوزان لاكور الكاتبة الاشتراكية التى اشتهرت بجهودها فى سبيل حماية الطفولة

وهذه أول مرة فى تاريخ فرنسا تتبوأ فيها المرأة كرسى الوزارة ؛ ويزيد الحادث غرابة وطرافة أن أولئك النسوة الوزيرات لا زلن كباقى نساء فرنسا ، محرومات بنص الدستور من مزاولة أبسط الحقوق العامة ، أعنى حق الانتخاب ، وهو حق تجاهد المرأة الفرنسية للحصول عليه بكل ما وسعت ، وتأباه عليها الحكومات والبرلمانات المتعاقبة

ولقد تخلفت فرنسا فى هذا الميدان عن باقى الأمم الديموقراطية العظيمة مثل انكلترا وأمريكا وروسيا حيث تتبوأ المرأة مناصب الحكم ومقاعد النيابة منذ أعوام بعيدة ؛ وفى البرلمان الانكليزى اليوم عدد كبير من النسوة النائبات ، وفى الوزارة الانكليزية القائمة سيدة هى مس بونفيلد وزيرة العمل ؛ وفى أمريكا تشغل المرأة مناصب الحكم فى كثير من الولايات ، وتحتل عدداً كبيراً من المقاعد النيابية ؛ وفى روسيا السوفيتية تتمتع المرأة بجميع الحقوق السياسية والعامة التى يتمتع بها الرجل ، وتشغل كثيراً من مراكز الحكم والنيابة فى سائر الادارات والمجالس السوفيتية ، وأحياناً تشغل منصب السفارة ، مثل السيدة الكسندرا كولانتاى ، التى لبثت مدى حين سفيرة للروسيا فى المكسيك ثم فى السويد ؛ بل نرى المرأة تفوز فى بعض الأمم الفتية بحق الانتخاب والنيابة ، كما حدث أخيراً فى تركيا

***

كانت الحرب الكبرى ميداناً عظيماً لجهود المرأة ، ففيها استطاعت لأول مرة أن تضطلع بكثير من المهام والأعمال الشاقة ، وفيها لقيت الحركة النسوية المعاصرة فرصة عظيمة لنشاطها وظفرها ؛ ومنذ غداة الحرب استطاعت المرأة أن تحقق كثيراً من أمانيها ومطالبها ، فغزت جميع ميادين الحياة العامة ، ونفذت إلى معترك الوظائف والمهن الحرة ، وفتحت لها أبواب التعليم الجامعى بسائر أنواعه ، ولم تعد تقتصر على مزاولة المهن السلمية الهادئة كالطب والمحاماة والصحافة ؛ بل غدت تنافس الرجل فى أشق الأعمال وأخطرها ، كالهندسة والطيران وبعض الأعمال العسكرية والبحرية ، وغيرها مما كان اضطلاعها به يعتبر من قبل ضربا من المستحيل

ولكن المرأة ما زالت ترد بعنف عن حظيرة التشريع والسياسة العليا ، وعن مواطن المسئولية العامة ؛ وإذا كانت قد استطاعت أن تفوز فى بعض الأمم بحقوق الانتخاب والنيابة ، وأن تحتل بعض الوظائف الكبيرة ، فانها ما زالت بعيدة جدا عن التأثير فى سير السياسة العليا ، وسير التشريع القومى ؛ وما زال الرجل يستأثر وحده بتوجيه السياسة والتشريع بعيدا عن تدخل المرأة أو اشرافها . وقد تمضى أجيال أخرى قبل أن تستطيع المرأة أن تغزو هذا الميدان غزوا حقيقياً ، أو أن تساهم فيه مساهمة تذكر

وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل ؛ فقد أتيح للمرأة ، فى كثير من العصور أن تتبوأ الملك وأن تقود الأمم ، وأن تستأثر بتوجيه السياسة العليا ، ولكنها تحرم فى عصرنا ، وهو عصر تقدمها وظفرها ، من تبوىء مناصب الحكم والمسئولية . وبعبارة أخرى ، فقد سبق فوز المرأة بالملوكية ، فوزها بالوزارة أو ما يماثلها ؛ بيد أنه ليس من الصعب أن نفسر هذه الظاهرة التاريخية ؛ ذلك أن فوز المرأة بالملوكية لم يكن راجعاً فى عصر من العصور إلى مواهب ومزايا خاصة تؤهلها للاضطلاع بهذا المنصب الخطير ، ولكنه كان يرجع دائماً إلى حقوق الأسرة وتطورات الحوادث ؛ وقد كانت حقوق الأسرة فى الملك تتشح فى العصور القديمة والوسطى بنوع من الحق الالهى ، وفى ظل هذا الحق المزعوم الذى كانت تقدسه الشعوب فى تلك العصور استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك بالوراثة والتعيين لا بالأهلية والاستحقاق

وإذا كان من الانصاف أن نقول إن المرأة استطاعت فى ظل الملوكية أن تقوم أحياناً بمهام الملك والسياسة بقوة وبراعة ، فانه يجب ألا ننسى أن وجودها فى هذا المركز لم يكن عنوان فوزها الاجتماعى ، ولم يكن نهاية فى تطور النضال بينها وبين الرجل ، وإنه لم يكن أكثر من ظاهرة تاريخية عرضية كما بينا

على أن المرأة لم تقف فى توجيه العروش والسياسة عند هذا الموطن الذى ارتفعت اليه فى ظل الأسرة والحق الالهى ، بل استطاعت فى ظروف كثيرة أن تصل بقوة عزمها ونفوذها إلى التأثير المباشر فى توجيه الدول والحكومات ؛ ويقدم لنا التاريخ

أمثلة طريفة جمة من هذا النوع البارع من النساء . ولم يخل التاريخ الاسلامى نفسه من أمثلة من هذا النوع ؛ ففى تاريخ الأندلس نجد امرأة نصرانية بارعة هى صبح النافارية جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد ، تسيطر بنفوذها على الحكم وعلى حكومة قرطبة زهاء عشرة أعوام ، وتؤثر فى سياسة القصر والدولة ؛ فاذا توفى الحكم نراها تستأثر مدى حين بالوصاية على ولدها المؤيد وتوجه ناصية الشؤون ببراعة ودهاء حتى يسطع نجم المنصور بن أبى عامر (الحاجب المنصور) فيسلبها كل سلطة وكل نفوذ . وفى دولة بنى عباد باشبيلية ، نرى جارية أخرى هى اعتماد الرميكية جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده تسيطر على حكومة اشبيلية مدى حين . وفى أواخر دولة الاسلام بالأندلس نجد امرأة نصرانية هى ثريا زوجة السلطان أبى الحسن النصرى ملك غرناطة توجه شؤون الدولة طبق أهوائها وتثير بمساعيها ضرام الحرب الأهلية التى انتهت بسقوط غرناطة فى أيدى النصارى . ويقدم الينا التاريخ الأوربى نماذج عديدة مدهشة من نساء يسيطرن على الدولة بطرق غير مباشرة ، ونكتفى بأن نقدم من ذلك مثلين بارزين : أولهما مثل المركيزة دى بومبادور صاحبة لويس الخامس عشر ملك فرنسا ، وقد خلت فى البلاط مكان الملكة الحقيقية ، وسيطرت مدى أعوام طويلة بنفوذها على شؤون القصر والدولة ، تولى وتعزل ، وتأمر وتنهى ، وتؤثر فى توجيه سياسة فرنسا الخارجية أعظم تأثير ، وتقبض على مقاليد السلام والحرب . والمثل الثانى هو مثل البارونة بربارة فون كريدنر ، وهى سيدة روسية غادرت حياة زوجية نكدة لتعتنق حياة الزهد والتصوف ، وقصت علينا حياتها الأولى فى كتاب عنوانه « فاليرى » ، وطافت أرجاء ألمانيا وسويسرة وهى تحض على الزهد واحتقار متاع هذه الحياة الدنيا ، ثم ألقت بها المقادير إلى بلاط القيصر اسكندر الأول ، فأثرت فى نفسه تأثيرا عظيما واستولت على مشاعره وتفكيره ؛ وكان يقضى معها كل يوم ساعات عديدة فى الصلاة والشورى ؛ وقد ظهر تأثير هذه المرأة الغريبة فى عقد « المعاهدة المقدسة » الشهيرة ، التى عقدها القيصر مع النمسا وبروسيا (سنة ١٨١٥) وغرضها الظاهر تنظيم العلائق الدولية طبقاً للمبادئ المسيحية ، وترويج المحبة الأخوية بين الشعوب ، وغرضها الحقيقى مقاومة النزعات والحركات الحرة ؛ وكان للبارونة فون كريدنر فى الحث على عقدها أعظم أثر ، كما أنها لبثت مدى حين توجه سياسة القيصر طبق آرائها ونصائحها

فهذه الأمثلة التاريخية العديدة توضح لنا إلى أى مدى استطاعت المرأة أن تغزو مواطن التأثير والنفوذ فى الشؤون العامة بطرق ووسائل غير مباشرة ؛ بيد أن هذا الفوز الذى يرجع دائماً إلى عوامل وظروف عرضية ، لم يكن ثمرة نضال أو تطور طبيعى ؛ أما اليوم فان المرأة تسير فى ميدان النضال بخطوات حثيثة ، وتحقق لنفسها بوسائلها وجهودها ظفرا بعد ظفر ؛ وإذا كانت المرأة تتبوأ اليوم كراسى النيابة والوزارة ، فذلك لأنها استطاعت أن تشق طريقها إلى تلك المناصب ، وأن تدلل على أهليتها لتوليها ، فهى إذن تسير فى طريق طبيعى لا أثر فيه للطفرة أو العوامل العارضة التى رفعتها من قبل إلى مواطن نفوذ لم تكن تحلم بها

ولا ريب أن المرأة لن تقف عند هذا الفوز اليسير الذى يكاد يعتبر فوزاً رمزياً فقط ؛ ومن المحقق أنها ستعتز بهذا الفوز على ضآلته فتضاعف جهودها ؛ وإذا سارت الحوادث فى طريقها ، وإذا لم تعقها العوامل والمؤثرات الرجعية ، فان المرأة ستصل فى المستقبل القريب فى تحقيق أمانيها إلى مدى يصعب اليوم ادراكه وتقديره ، وإن لم يك ثمة شك فى أنه سيكون عظيما بعيد الأثر ؟

محمد عبد الله عنان

هنرى روبير

عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين

للأستاذ عبد الحليم الجندى المحامى

إلى المحاماة ، فى شخص المحامى الأول ،
والنقيب الأول ، ابراهيم الهلباوى بك

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

ولكن ما الذى يقوله هنرى روبير فى تلك القضايا التى سلخ المحقق فى تحقيقها عاماً كاملاً ، أو التى اسودت فيها آلاف الصحف ؟ للجواب على ذلك نقول إن هنرى روبير كان يجيد عدم الكلام بقدر ماكان يجيد الكلام ، فهو يعمد أولاً إلى المسألة التى تحكم القضية — إذا صح هذا التعبير فى لغتنا العربية — فيظهرها على طريقته بقوة وبسرعة وإيجاز ، ثم يسقط من كلامه أكثر ما فى القضية من حواش تنأى به عن الجوهر ؛ فهو يدرك كل الادراك أن الخير للمحامى ليس عرض كل ما فى الأضبارة ، بل الفن الحقيقى هو ترك ما يجب أن يترك فيها ؛ وقديماً علمنا أساتذتنا أن فن الحذف يساوى تماماً فن الكلام ... ولذلك كنت تجده مسرعا ، ممتعاً ، مقنعاً ؛ كل ذلك فى وقت واحد

كان يقول إنه درس « لاشو » دراسة عميقة ؛ لكنك لا تجد فيه مشابه من أستاذه ، فمرافعات روبير كانت مرافعات موضوعية مجردة ، لا تتخللها الجلجلة ولا الصوت الداوى ، ولا الصور التاريخية ، ولا العبارات البيانية الخلابة التى يتشابه فيها لاشو مع أستاذ ذلك العصر « فكتور هوجو » . والحق أن تلاميذ لاشو لم يكن منهم نقيبنا الذى تتحدث عنه ، بل إن لاشو قد خلف من بعده بارّبو نابغة الفن التقليدى فى الدفاع ، ولابورى ، المهيب الذى يُرعب بقدر مايستطيع الاقناع ؛ أما هنرى روبير فلم يكن يهمه رسم الصور ، ولا طلاء اللفظ ، ولا طلاوة الأسلوب ، ولا تفخيم المعانى ؛ فاذا جاءت صورة من الصور أو حكمة من الحكم فى معرض الدفاع وجدتها منتزعة من صميم الواقع لا من آفاق الخيال ، ووجدتها من لباب القضية لا مترددة بين الحواشى لتثير الاعجاب

رحمه الله ! ألا فليقل لنا إن كان حقاً قد تتلمذ لأستاذ القرن الماضى — بعد بريبه — هل هو كان يرى أن يقول للمحلفين تلك الكلمة المسرحية أو الخطابية التى قالها لاشو فى سنة ١٨٥٥ وهو يترافع عن روداف المتهم بدس السم إلى عشيقته « ميمى » : « ها إن السماء تدوى لكأنها تكاد تنقض ؛ إنكم تسمعون هزيم الرعد وعصف العاصفة ! ... إن السماء تزمجر سخطاً على ما على الأرض من اعنات ... إنها تحتج معى على تلك الاجراءات !! » . أو تلك الكلمة الهائلة التى صوبها إلى القضاة فى مرافعته ضد الجنرال « تروش » بعد حرب السبعين ، وكان تروش قد تهاون فى قضية الأمبراطور ، وكان الأمبراطور قد خُلع ، وكان الأمبراطور صديقاً شخصياً للاشو ، قال : « ... إنكم ستحكمون فى قضية الجنرال تروش ... ولكن التاريخ سيصدر حكمه على حكمكم !.. وسيقرأ التاريخ كل مادار فى هذه الجلسات .. فحذار أن تضحوا كل شيء مرة واحدة .. فيقول بنو الأجيال المقبلة : إن كل شيء فى هذه الأمة قد ضاع « حتى العدالة نفسها ! » لم يكن روبير ينحو ذلك النحو البلاغى فى الدفاع ، لأن وظيفة المحامى عنده كما قال : « أن يُقنع لا أن يلمع » ، ولأن الدنيا تغيرت ، والمحاكم ضاقت ، وصدور القضاة والحضارة نفسها أصبحت معجلة كأنها تريد أن تصل بالدنيا إلى آخر الدنيا ...

إنما تلاميذ لاشو ولداته هم أولئك الذين يقولون مثلما قال باربو عن دلسبس : « ... ذلك الانسان الذى أضاف بعض الـ « رتوش » إلى صورة الخليقة كما أبدعتها يد الخالق ... » أو مثل فكتور هوجو وهو يترافع عن ولده شارل ضد عقوبة الأعدام « .. هذه العقوبة التى إذا وقعت على مجرم جماته يشك فى وجود الانسانية ، فاذا وقعت على برىء جعلته يشك فى وجود الله !.. » أو مثل فكتور هوجو أيضاً وهو يترافع فى هذه القضية ، وإذا شئت فقل مثل النمر — الأب النصر كما سموه بعد الحرب الكبرى — أعنى كليمنصو عند ما ترافع عن أميل زولا عقب لابورى ، فنقل عن هوجو تلك الاشارة البديعة إلى تمثال المسيح ، وكان إلى ذلك الوقت يوضع خلف هيئة المحكمة فى الجلسات وقال : « انظروا وراءكم ، فهذه أكبر ضحية عرفها التاريخ لأخطاء القضاة ! ! ... ... وكانت قضية أميل زولا تدور حول إعادة

النظر فى قضية دريفوس ؛ أو الهلباوى مثلاً فى قضـية نزاهة الحكم ، وبتلك الوثبة الذهنية البارعة ، بل تلك الأعجوبة الرائعة الخالدة ، عند ما رد حفنى بك محمود أحد المستشارين لشبهة عرضت له فرفض الرد وأخذ الدفاع عن الخصم يعبِّر حفنى بك بأن رده رفض وبأنه يتشكك حتى فى القضاة ، ويتهم حتى رجال العدل ، قال هلباوى بك « . . . فلما عرضت له الشبهة فى قاضيه لم ينخلع فؤاده فرَقاً ، بل أقدم على أن يطلب الحقيقة عارية والعدالة مجردة ، ليطمئن قلبه ؛ وقديماً ، وفى سبيل الاطمئنان قال موسى : (رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولـكن انظر إلى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً . فلمـا أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) . .

فالاطمئنان الذى نشده موسى وظفر به ، هو الاطمئنان الذى نشده حفنى وظفر به ! والذى حصل من حفنى حصل من إنسان أسمى منه ألف مرة ، وبالنسبة لمن ؟ بالنسبة لمن هو أسمى من سعادة المستشار لا ألف مرة ، ولا مليون مرة ، ولـكن بمقدار الفرق ما بين الانسان وخالق الانسان . . !! »

لا تجد لذلك التصوير وأشباهه نظائر عنـد هنرى روبير ، لـكنك تجد له خواطر ممتعةً تستحيل عنـد تلاوتها إلى حجج موضوعية فى القضية المطروحة . ومثل ذلك ما نقلناه من قبل فى ختام مرافعته عن بوبوروش ؛ ومثل ذلك أيضاً ما جاء فى مرافعته عن الدكتور لابورت فاستمع إليه يوجه نظر القضاة إلى الأطباء : « ... انظروا إلى تلك الغرفات الفساح فى المصحات والمستشفيات حيث الهواء مشبع بسموم الدفتريا وجراثيم الطاعون ، وانظروا إلى أولئك الرائحين الغـادين فى تلك الغرف أمام مرضى ينفثون الموت الزؤام من الشهقات والزفرات ؛ هل علمتم على واحد منهم أنه أجفل أو أنه ارتمد ؟ هل تردد واحـد منهم عن القيام بكل ما يفرضه عليه الواجب ؟ ارجعوا إلى إحصاءات الحمى الصفراء والـكوليرا ، واسألوا كم من هؤلاء الفرسان قد سقط فى ساح الشرف ! انظروا إلى هذه الطائفة وقولوا هل هى الطائفة المتمردة على القانون والتى يجب أن يضرب على أيديها ضربات البطش والانتقام ! . . لا . لا . . إنكم ستجدون هؤلاء البنين البررة للعلم وللفن وللانسانية قد وهبوا نفوسهم للعلم وللفن وللموت فى سبيلهما ؛ فهم تارة يصرعون الموت وتارة يصرعهم ، لـكنهم يستحقون الاعجاب فى كل حال !! . . »

وكانت له وثبات فى الارتجال يتناقلها الـكافة ؛ فمثل ذلك رده على النقيب دربيه الذى جاء فى صدر هـذا البحث ، ومثله ما رواه « جو لندن » فى (أشهر قضايا سنة ١٩٣٢) ولقد كان توريز المحامى الأشهر يدافع بجلسة ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٢ أمام استئناف الجنح عن موكله (ثرمون) ضد (تا كوشيا) موكل هنرى روبير ، وكانت التهمة نصباً موجهاً ضد ثرمون ، وكان هنرى روبير محامى المدعى المدنى ، وكانت نظرية توريز أن تا كوشيا سبق أن نصب على ثرمون فجاء ثرمون وأصلح ما أفسده عليـه تا كوشيا ، واختتم دفاعه بكلمة مسرحية تخلب الألباب قال : « ... لقد كانت رواية : أما الفصل الاول فتا كوشيا يضرب ثرمون ، والفصل الثانى ثرمون يضرب تا كوشيا . . . » وبينما هو يسترسل نادى هنرى روبير بصوت ضخم : « . . . الفصـل الثالث : المحـكمة تضرب ثرمون !! . . »

كان زعيم الارتجاليين كما قلنا ، فما هو الارتجال إذن ؟ أما ارتجال الفـكرة فمجازفة بحقوق النـاس ، ووصمة للمحاماة ، واستهتار بالقضاة ؛ وأما ارتجال الألفاظ فذلك شىء آخر ؛ والمحامى الذى يرتجل الـكلام هو الذى يملك أعنة البلاغة ، أو هو الذى حضر مرافعته مرات ومرات ، أو هو الذى تمرن على مواجهـة الاحداث ومجابهة ما يفاجئ ؛ وإذن فهو لا يرتجل وإنمـا هو يستخرج ما فى مواهبه من كنوز غائرة تظهرها الحاجة ، فهذا تحضير غير مباشر ، وهذا هو بالطبع ما عناه شارل شنى فى محاضرته لفتيات الجامعة فى سنة ١٩١١ ، إذ حدثهن عن حياته الأولى فى المحاماة قال : « ... وكنا جميعاً نساهم بنصيب ضخم فى تلك الأكذوبة الشائعة وهى أننا نرتجل عفو البديهة كلاماً سهرنا فى تحضيره طول الليل وأثناء النهار . . !! » وفى أواخر القرن الماضى أشار محام — كان عضواً فى مجلس النواب — إلى أن القضاة سيسمعون من (باربو) مرافعة أصلها مكتوب ، فصرخ باربو بصوته الداوى : « نعم إن احترامى لهذه الساحة يضطرنى لتحضير ما أقول ، لـكن الذين لا يحضرون كلامهم ويملؤونه بالتناقض يجدون صدوراً رحبةً فى ساحةٍ أخرى . . » وكانت الساحة الأخرى طبعاً مجلس النواب

كان هنرى روبير يوصى المحامين دائماً بالاطلاع والاستعداد؛ كان يوصى بالقراءة دائماً وبالكتابة دائماً؛ كان يقول مثلما قيل من قبله: إن سر النجاح هو «أولاً: العمل، وثانياً: العمل، وثالثاً: العمل» ولقد يكون المحامى موهوباً وكله كفايات، فاذا لم يجدد نفسه ويزوّدها بالمعلومات وجد نفسه بعد سنوات أجوف فارغاً يردد اليوم ما يردده غداً. حدثنا النقيب بايان عن شنى وباربو أنهما قضيا نحو العشرين عاماً فى زاوية من زوايا المحاماة لا يعرفها اشعاع النور؛ وفى تلك الأثناء كانا، وخاصةً باربو يتسلحان بدراسة عميقة للعلوم والتاريخ؛ حتى إذا انقضى ثلث قرن كان باربو يفتح كراساته ليستخرج منها شواهد هى آية الآيات فى المحاماة بل فى الأدب الكلاسيك؛ ولكن روبير قد عرف الشهرة فى مستهل حياته فهو لم يكن ينعم — أو يشقى — بما سماه الفراغ الاجبارى للمحامين، ولكنه مع ذلك كان يجبر الزمان وصحته على أن يمنحاه الفراغ والعلم. وإذا رجعت إلى مؤلفاته وخصوصاً قضايا التاريخ الكبرى، تلك القضايا التى تعتبر القضية الواحدة منها دنيا كاملةً فى قرن كامل، عندئذ يتضح لك مبلغ ما أخذ به روبير نفسه من نصيحته للمحامين

إلى هذه الكفايات العظمى كان يضيف كفاءة خاصةً هى الخلق العظيم: هى التواضع. وقدماً قال «لاروبير» (إن التواضع مع الكفاءة، كالظلال مع الصورة، تظهرها وتوضحها وتجلّيها)

هكذا كان رجلنا مع رجال القضاء ومع الزملاء

هو قد سلخ قرابة نصف قرن يترافع أمام القضاة والنواب، ومع ذلك لم نسمع له بحادث واحد كلابورى الذى أسلفنا عنه المقال، أو كشيفيانى حتى قُدّم للمحاكمة وأوقف مدةً لم تكد تنقضى حتى صار وزيراً للحقانية!! ثم صار رئيساً للوزراء! أو أميل أوليفيه، أو كأسلوب «بربيه» عندما ترافع فى قضية الثلاثة عشر فقال للنائب العام: «.. لا لست حسن النية فى هذا الذى تقول؛ إن القوانين لا تطبق فى هذه الأيام ولكنها تفسر دائماً بما لا تحتمله؛ إن النصوص تُرهق كما يُرهق بها الرجال.!» ولا كأسلوب ڤولتير عندما قال عن قضاة كالا: «.. لا تذكرونى بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة!» ذلك لأن هنرى روبير كان يعرف أن جلال المحاماة من جلال القضاء، وأن شخصية القاضى جزء من معنى القضاء لا ينفصلان. أما مع الزملاء فكان خير الزملاء، عطفاً وأدباً وحسن وفاء. إليك مؤلفاته جميعاً، كلها ذكريات حلوة عن الزملاء والأساتذة. هذه أعذب العبارات يكتبها عن أستاذه دربيه؛ وهذه أمداح تترى للنقيب مارتينى، وتقدير لا حد له للخالدين بوانكاريه وبارتو، ولد بوى وملران ولبريان ذى الصوت العذب عندما يترافع، وهذا إعجاب لا حد له بلابورى، وحب لشارل شنى، وإكبار لباربو وروسو الخ. هذا الثبت الحافل من الرجال الذين تتردد أسماؤهم فى مؤلفاته. حتى إذا راودته المنية عن نفسه استمهلها ليكتب سطوراً لم تحل الوفاة بينها وبين الناس ليملأها مدحاً للقضاة ولرجال المحاماة فى الأمس الدابر، وللمحاماة نفسها، تلك الآلهة التى طالما قدسها، تلك الغانية التى طالما عبدها وأخلص لها الحب والعبادة بل التى ملأ الوجود الانسانى بكلام عنها يُشبه الألحان

* * *

وبعدُ: فما هى المحاماة؟ «المحاماة أسمى مهنة فى الدنيا» كما قال ڤولتير وكما قال أيضاً «كم كنت أرجو أن أكون محامياً» بل هى كما قال ماكس باتو «إن المحامى ملك»؛ ليست هذه العبارات لوحات أدبية معلقة؛ لكنها حقائق قائمة منتزعة من صميم الواقع؛ فانظر إلى المحامى وهو يترافع؛ لا إلى (بربيه) وهو يترافع عن ملك مستقبل ضد ملك قائم، وعن ملك مخلوع ضد ملك منصب، ولا إلى ماليرب وزملائه وهم «يحملون إلى الكونڤاتسيون الحقيقة ورأسهم» دفاعاً عن لويس السادس عشر، ولا إلى الهلباوى وهو يترافع فى آخر القرن الماضى عن البرنس سيف الدين ضد ملك، وفى ١٩٣٣ عن البرنس محمد على ضد من؟ أو فى سنة ١٩١٤ عن خيرى باشا ومحرم باشا ووراءهما من كان وراءهما؛ ما إلى هؤلاء قصدت ولكن إلى المحامى الصغير — أعنى الشاب، فليس فى المحاماة صغير وكبير، بل فيها شاب ومكتهل — إلى المحامى الناشئ وهو يقف أمام المنصة، فى محكمة الجنح أو أمام القاضى الجزئى؛ هو ذا يدلى بمرافعته بين الاحترام العام دائماً أو الاعجاب العام فى بعض الأحوال، كلمات متزنة، وعبارات واضحة كلها إخلاص؛ مسموع الصوت مسموع الكلام، لكأنك به فى ردائه الأسود، الكاهن الجليل فى ساحة المعبد؛ الأعناق مطمحة إليه؛ والآمال معقودة عليه؛ فى يده مستقبل

أسرة أو ثروة فقير أو كرامة رجل أو عرض غانية ؛ ولقد يكون المحامى فى سبيل الدفاع عن موكليه قد ضحى ما ضحى ، أضعاف أضعاف ما كسب ، وهو قد يكون تقدم الى الدفاع كما كان يتقدم أسلافنا الأولون ، بدافع النجدة والمروءة وفى سبيل الشرف لا فى مقابل المـال ؛ هو ذا يقف ببسالة أمام الطغيان ، طغيان الأفراد أو طغيان الطبقات أو طغيان الأمة أو طغيان الحكومة ذاتها .. إنك تكاد تحسب عنـدئذ أن المروءة والبسالة قد اتخذتا شكل رجل يتكلم ، حتى إذا انتهى من مرافعته أملى التاريخ إملاءة بسيطة ليسمع كلمة القضاء أو كلمة القدر

انظر الى المحامى فى تلك الصورة المصغرة التى رسمناها ، وقل لنفسك مع ما كس باتو « إن المحامى ملك »

ولـكن — أيها الاخوان المحامون — إذا كان حقاً أن ليست هناك مهن وضيعة ، وانما هناك أشخاص وضيعون فان ثمة حقيقة أخرى هى أنه ليس هناك مهن رفيعة ، وانما هناك رجال يرفعون من شأن المهنـة . فاعملوا إذن على رفع مستوى المحاماة دائماً باستمرار : اعلموا أن الحياة المـادية ليست هى المطمح المسامى لمن لبس هـذا الرداء الأسود ، بل إن هذا الرداء كما قال الهلباوى فى مرافعته عن الوردانى إنما يذكرنا بأننا قسيسون فى معبد العدالة نشاطر الناس لواعجهم وأشجانهم ؛ وكلـما سمت المهنة سما بها بنوها عن الابتذال ؛ واعلموا أن نصف الوزراء فى الحياة الديموقراطية لا يعيشون بعد الخدمة إلا عيشة الكفاف . اعلموا أن المحاماة رسالة وليست تجارة ؛ وأن السعيد من استطاع أن يفهمها على غير أسس المـال ؛ هاتوا صحائف التاريخ تشهدوا الثروات تتدفق على المحامى دائماً بعد أن يكون قد قام بواجبه فى سبيل الشرف أو فى سبيل الصالح العام ؛ تشهدوا المـال يلاحق المحامى بعد أن يكون قد أدى رسالته فى خدمة المظلومين أو فى مدافعة الطغاة ؛ تشهدوا المحامى العظيم لا يسعى الى المال وانما يسعى الى الشرف ، وكلما أعرض عن جمع المال انحدر اليه المال من كل ناحية . فالسعيد منكم من استطاع أن يفهم المحاماة على أنها مهمة ومهنة ؛ فاملأوا نفوسكم بالقناعة ، واملأوا أذهانكم بالعلم ، واملأوا فراغكم — الاجبارى أو الاختيارى — بالدرس وبالتحصيـل وبالسعى المطرد نحو الـكمال

وأنتم أيها المحامون الشبان : اسمعوا ! إن المحاماة فى مصر لم تصل الى أزهى عصورها بعد ؛ فأنتم إذن أملها المرموق بالعناية . اكتبوا دائماً ، واقرأوا دائماً ، وتعلموا حسن الأداء — فالمحاماة فى الحقيقـة ليست إلا حسن أداء — واذكروا أن الحيـاة الديمقراطية قد ذللت لـكم كل شعاب المجد ، وفتحت لـكم الأبواب على مصاريعها ، فأدوا رسالتـكم على خير وجوهها ، وكونوا دائماً شجعاناً ؛ وأضيفوا الى مبادئكم أن خير ما علمنا أساتذتنا هو أن احترام المحاماة من احترام القضاء ، وأن خير ما يكسب به الدعوى هو سلامة الأسلوب ونزاهة الغاية

اذكروا أن رئيس محكمة النقض السابق كان رئيساً لنقابتكم ، وأن رئيس نقابتكم السابق هو الرئيس الثانى فى الدولة بعد رئيس الوزارة ، واذكروا أن رئيس الوزارة اليوم بل صاحب الرياسات جميعاً ، كان وما يزال محامياً منكم . واعلموا أخيراً أن هؤلاء الذين شاركوكم كزملاء لا كرؤساء سيعود اليكم منهم من يعودون ليتشرفوا بحمل ذلك الرداء الأسود الذى يساوى كلمة الدفاع ، ذلك الرداء الذى كان يحمله بوانكاريه وملران بين رياسة الجمهورية ورياسة الوزارة مثلما كان يصنع ڤيڤيانى ووالدك روسو ومثلما يصنع عبد العزيز فهمى ومكرم عبيد

كم كنت أود لو نقلت إليكم تلكم الخطبة الخالدة التى ألقاها المستشار «داچوسو» من نحو مائتى عام فى المحامين والمحاماة ، ولـكن المقام ضاق فاليكم منها تلكم الخاتمة :—

« .. حسبكم جزاء على آلائكم العظمى التى تسدونها الى الناس هذه العظمة وذلكم الجلال ، وألا تكونوا مدينين بالعظمة وبالجلال إلا الى أنفسكم . حسبكم أن يتخذ منكم الناس مثلما اتخذوا من أسلافكم من القادة والهداة والرسل ، وأن ترتفعوا الى تلكم المكانة العليا فوق الكافة فتتولوا صرف المنازعات وفض الخصومات ، تتولوا القضاء الفعلى بين الناس كما يتولاه القضاة الموظفون ولـكن بما لـكم من سمو الغاية ونزاهة القصد ونصيب ضخم من الاحترام العام وبمـا لـكم من نفوذ الـكلمة وبلاغة التأثير وجلال العبارة . . . فهل أنتم إذن ستكونون لأنفسكم أداة تقدم لا عوامل تنفتل بكم الى الوراء ؟ . . هل ستكون هذه المحاماة التى طالما عملت لمجد الأمة ، وكم ستعمل فى سبيلها ؟ هل ستكون عند رجائنا فيها فتحتفظ لنفسها بمنزلتها الرفيعة العليا بين المهن ، بالفقه وبالبيان ولـكن بالعدل والنزاهة أيضاً ؟ . . »

صوتُ الجبَـــــل *

[مهداة الى الأستاذ الزيات]

للأستاذ معروف الأرناءوط

« . . . لقد قال لها إن الجبل يناديني يا «سافو» ... ثم رفع صوته قائلا : إن الله قريب مني وإني لأراه في هذا النور الذي يطفو على «سيناء» ! وفي هذا الفتون الذي يراق على بادية التيه ! »

قال « كريستيا » « لسافو » وقد اطّرح الدير في الليلة الجوناء وهبط « وادي العربة » تاركا وراءه قنن جبل « حور » : ناشدتك الله يا أخية أن تسمعيني شيئاً من حوار «أوديب» حينما اشتملت عليه جبال وطنه ، فانه ليروق لي وقد شابهت هجرتي هجرته وماثلت شجوني شجونه ، وحاكت ليالي لياليه ، أن استمع لجرسه الشجيّ في هذا الوادي المصحر ... إنك لتتذكرين خروج هذا الملك في ذات ليلة الى جبال « كولون » ومعه ابنته « أنتيغون » فلما أظلته السحب وأرزمت السماء وقعقعت تهافت على ابنته في

* الفصل الثالث والثلاثون من الرواية الخالدة « عمر بن الخطاب »

رفق وحب وسألها أن تذكر له اسم الأرض التي وطئها وقال لها إنه يحب أن يدفن آلامه ومتاعبه وذكرياته في المنفى ، فطفقت «أنتيغون» تتحدث إليه عن وطنه الجديد ، فرق وسكن ولطفت أحاديثها حزبه . نعم حدثيني يا « سافو » عن « أوديب » وعن « أنتيغون» فاعا أنا ذلك التعس « أوديب » ، وأنت « أنتيغون » رفيقته في أرض المنفى ، ولكن سافو كانت تفكر في « فروه ابن عمرو وفي المعركة التي نهـد اليها برجال حصدت نصفهم الحرب وما يستطيع الذين نجوا من غضب «قيصر» أن يستبقوا الحياة الى ليال فلقـد تتاورهم الرماح والنبال والسيوف من كل ناحية ويمنعهم هذا الجيش الكثيف الرابض عند منافذ الأودية ومسارب الطرق من الافلات . فتضيق بهم « سلع » ويضنيهم الحصار والطوى والبرد وانقطاع المدد :

لقد كانت تفكر في هذا كله ساعة أرادها الشاعر المثال على قراءة قصة « أوديب » الملك ، فلما لم تسمعه مرتها تغني بشعر « سفوكليس » وحسب نفسه وهو يطأ الجبـل أنه ذلك التعس « أوديب » فقال بصوت شجي يشبه الرثاء :

أوديب

« أنتيغون ، يا ابنة ذلك الأعمى الشيخ ، ناشـدتك الله إلا ما حسرت لي عن هذا البلد الذي بلغنا نواحيه ، وأيّ شعب هذا الذي نزلنا منازله ، ومن هم جيرتنا في البلد النازح ؟ في هذا اليوم يستجدي « أوديب » الهائم السّادر الناس ، فيعطيه هؤلاء عطاء حقيراً ، بلى لقد طلبت قليلاً وأعطيت يسيراً ، وفي هذا غناء لي وكفاء ، فقد علمتني الآلام والأهوال والمحن وتعاقب السنين ونفسي الصابرة : علمني كل أولئك الاستسلام والرضى ، فهلمي يا بنية ، هلمي إلى فلاتن لنحت مقعداً في مكان رجس أو في غاب مقدس فقفي بي عنده وانزلي بي في أديمه ، ثم لا يضيرني ولا يضيرك أن نمضي إلى الناس فنسألهم الطريق وفي أيّ موضع منـه نحن ؟ فاننا غرباء عن الديار ومن حقنا أن نسأل الغادي والرائح »

ولـكن سافو لم تفعل ما فعلته « أنتيغون » ، ولم تدله على المكان الذي نزل فيه فانثنى هامساً بمثل ما همست به « أنتيغون » في أذني أبيها البائس :

أيها الزملاء ! كلمة أخيرة

إن نقيكم العظيم المضطلع بشتى شؤون الدولة يكاد يقول مثل « الملك الشمس » « أنا الدولة » فأهيبوا به أن يذكرنا . . . . وعند ما يصـدر القانون ، وتتقرر حصانة المحامي في الجلسات ، يومئذ تلمسون بأصابعكم ما قاله ماكس باتو من أن المحامي مـلك ، بل وتضيفون إليه أيضاً أن المحامي مـلك

عبد الحليم الجندي

مراجع البحث : مؤلفات هنري روبير L'avocat; Les Gands Procés de L'histoire; Un Avocat de 1830; Souvenirs du Palais de lPa Ville. Modèls Francais IV, Edmond Procés

Anthologic des Avocats Français contemporains : Fernan Paiyan Leurs Maniere. Bernard Gasset

مؤلفا الأستاذ الجداوي (المراقبة ومرافعات) Can dide 21 mai 1936

محاضرة لويس بارتو ومحاضرة شارل شي في Uuiversite des Anneles 1937

المنشورتان في جريدة Jaurnal de L'universite des Annalis سـنة ١٩١١

أنتيغون

أوديب ! أيها الوالد التعس ، يا من أضناه الألم ، وأذبله الداء ! ليخيل إلىّ أن سور مدينة قد ارتسم فى الأفق أمام عيوننا ، وهذه الارض التى نتزل فيها لا يزال عليها عبق من قداسة ونفاسة ، يدلك على ذلك هذا الغار المتشابك وهذه الأدواح الظليلة ، وهذه الينابيع الرقراقة ، ثم هذه البلابل التى تتغنى فى الغاب الوارف . اطو يا أبتاه قدميك فلعلك تستطيع الجلوس على هذا الصخر الواعر ، فلقد طال شرودك ، وامتدت المسافات بك ، وانت ذلك الشيخ الذى لا يستطيع إمعاناً فى صعود وفى هبوط

أوديب

بلى ، بلى ، دعينى أجلس ، واسهرى على الأعمى العاثر الجد (١)

***

وراح « كريستيا » جالساً على الصخر وقلبه يميد وجبينه يتندى عرقاً وعيناه ترعشان فى كل ناحية من نواحى هذا الأفق المديد الفسيح ؛ وجلست « سافو » بجواره وفى نفسها أثر من جراح نفسه ، ثم لم تلبث أن رقت له رقة أليمة ، وأخذت بده وقالت له : أتدرى أين مسكنك ؟ قال لا ، قالت فى « وادى العربة » هذا الذى يفصل « البحر الميت » عن « خليج أيلة »

وكان قد أمضى بعض ليله على روابى جبل حور ، فلما نزل فرع الوادى لم يشعر بالمسافات الطويلة التى خلفها وراءه ولم يعطن إلى توبه الذى مزقته الصخور والادغال المتشابكة ولم ينتبه إلى الاعياء الذى تعاور « سافو » وكذلك ما كان يهمه أن يحتويه المكان القارع ، فلقد جلس على الصخر فى سكينة ودعة ، وجعل يقلب عينيه فى الجبال التى تحيط بالسهل من الشرق إلى الغرب وقد خلعت على الوادى ظلاً شاحباً فبدا عميقاً كأنه هوة من هوات الجحيم !

وكان من أحب أمانيه ان يتعرف إلى طريق البحر الميت والأردن ليلحق بحسناته « بنيامينا » ويقضى ما تبقى من أيامه فى الأرض التى نبت عنها الشهرة واطّرها المجد فما يردد نظراته فى جنوب الوادى حتى يكرهه ويمله وحتى يعاف أن يحدق اليه ، وذلك لأن فى جنوب وادى العربة طريقاً تدفع إلى خليج أيلة ، إلى ذلك البحر الذى لا تفارقه سفن « هراقليوس » وفلكه ثم يحلق وهمه فى طريق الشمال فتتمثل له الأرض منحدرة هابطة إلى البحر الميت وإلى الأردن فيرق ويتشاجى ويذكر « بنيامينا » النازلة شواطىء النهر المقدس ثم يتلفت إلى « سافو » ليسألها أن ترافقه فيرى إليها نائمة حالمة فيمنعه حبه لها وبره بها أن يبتعثها على استفاقة تخرجها من أحلامها الهادئة ثم يعود فيستعرض وادى « العربة » من مكانه على الصخر ، فاذا امتدت نظراته من الشمال إلى الشرق استبحر المكان أمامه وعرض له أخدود راعب يتساقط الماء على جوانبه من قلل جبل الشراة فيزعجه ويؤله أن ينبطح السيل فى مفاجر الوادى ومرافضه فيضع يده على رأس « سافو » النائمة الحالمة فتستفيق وتنهض وتدير لحاظها فى تلك الأرجاء الفيحاء ثم لا تلبث أن تدرك مأساة حياتها ، ويزيدها غماً ويأساً أن يلبس هذه المأساة هذا الحزن الذى يغشى جروف « العربة » وفلوجه ومسايله ومنحدراته ، ولما أرادها « كريستيا » على اصطحابه فى طريق البحر الميت لم تجد معدى عن مجاراته ومسايرته ، فوقفت على الصخر ونظرت إلى الجنوب فاذا الطريق قد فرقت فروقاً عظيما حتى لتوشك أن تنتهى عند خليج « أيلة » فأخافها أن تمتد الطريق وتفيح ، ثم نظرت كرة أخرى إلى الشمال فاذا الوادى يهبط إلى خيف لين رقيق ثم هو يزلق إلى الغور

وقد كان عسيراً على الأخوين وقد برّح بهما السير فى الأخاديد والأغوار والهوات والأودية أن يستأنفا الرحلة فى الأرض البراح ؛ ومع هذا كله ما كانت « سافو » تستطيع أن ترده عن منازعه ، فلما جاز الأخوان بعض الطريق وأوشك وادى « العربة » أن يتقلص ويغيب ترقرقت خيالة « سلع » فى عينى « سافو » فذكرت زوجها الظريف ، وابتعثها التذكار على الوفاء له فقالت لأخيها :

— إنه ليجمل بك أن تدأب فى سيرك حتى يطلع عليك « الأردن » أما أنا فلقد نذرت رجوعاً إلى « سلع » حيث ألحق زوجى الذى لم يترك سلاحه بعد !

(١) أوديب فى كولون الفصل الأول المشهد الأول

وكانت لهجتها صريحة وصادقة ، فلم يستطع « كريستيا » وهو الذى يعرف حبها لزوجها أن يمضىَ لها أمراً ، فلحق بها إلى وادى « العربة » وكان لا ندحة لهما عن الرجوع معاً الى جبل « حور » ثم ينحدران الى الدير ويلحقان « بسلع » !

وبعد طوافٍ عنيفٍ فى الأرض العطشاء ، فرع الشقيقان فى جبل « حور » فنزلا بضلعه الشرقية وقدر لهما وهما على المرتفع الشاهق المطلّ على الطريق ، أن يربا إلى وادى « العربة » الجميل وإلى صحراء « التيه » فوقف « كريستيا » خاشعاً أمام هذا المنظر الرائع حتى لقد جنب شعوره أن يحلّق فى عالمٍ آخر . وكيف يستطيع إحساسه الثائر أن يحلّق فى عالمٍ آخر ، وهذه الأرض المقدسة من « سيناء » ترعش فى نظراته وتطفو على جوارحه وتلهب ذكاءه وتذكره بماضى هذه البطحاء التى استمعت إلى صوت الله وهو يتحدث إلى نبىّ !

خيّل إلى « كريستيا » وقد وطىء كرة أخرى حضيض الجبل اللهم أن الدنيا طويت له واجتمعت عنده فأنّى تلفّت تمثلت له قلل جبل الشراة الرفيعة يغمرها موجٌ دافق من رواء السماء وبهاء السماء ، وأنّى استقر أخذته المشاهد الموحشة وعليها من الروعة والجلال والتذكارات ما ليس يجده الشعر المهذّب فى خيال رواته وقائليه ، بل لم يكن يستطيع وقد عرَضَتْ له « سيناء » وصحراء « التيه » وقيعان وادى « العربة » وجروفه أن ينزع من صدره صورة هذه الدنيا العابقة بعطر النبوّة والوحى

ولما أوشك أن يرق القنة التى عليها قبر « هارون » أرخى الشفق عليه ظلاله الساجية فاستراح بجوار القبر المقدس ، ووقفت « سافو » حياله ، فما فاتها وقد لصقت به أن تسمع صليل جوفه ، وأن ترى إلى عينيه وقد غابتا فى عقيق « سيناء » !

فى تلك الأثناء حفا البرق فى الصحارى ، وامتدت شعله وخيوطه على حواشى جبل « سيناء » حتى ضوّأت قلله وقننه ، وكشفت ربوده ومصاده وشعافه ، وحسرت عن جروفه وفلوجه وغيرانه ، ثم أضاء البرق ولمع ، ثم أضاء ولمع ، وتلت ذلك أصوات تشبه الهزيم ، وترقرقت ألوان الشفق الحمراء فى كل ناحية حتى أصبح الأفق وردة كالدهان ، فخيّل إلى الشاعر أن هذه الأطواد التى تجاوره وتصاقبه لا تريده على فراقها ، وإنما هى تريده على أن يستشرق بهذا القبس الشاعل الذى تراءى لموسى النبىّ فى البادية الغلفاء ، فلصق بمكانه وقال « لسافو » : انه يكره الرجوع إلى « سلع » ، وإن من أحبّ المنى إلى نفسه أن يموت وعيناه تنظران إلى أضواء هذا القبس الذى ترمى به قلل « سيناء » الرفيعة إلى الصحارى والبوادى

وما زال البرق يضىء ويلمع على روابى « سيناء » ، وما زالت الأصوات الخفيّة تتغاير فى الأفق على مدى بعيد ، وما زالت ألوان الشفق الحمراء تتفجّر هابطة صاعدة ، وريح النعناع تفغم الخياشيم حتى أحسّ « كريستيا » قداسة هذه الأرض ، فخلع نعليه وركع بجوار قبر « هارون » النبىّ مصلياً وداعياً ، منتحباً وباكياً !

لقد قال لها إنّ الجبل يناديني يا « سافو » ، وكلّ جارحة من جوارحى تقول لى لا يجمل بك أيها الشاعر أن تغمض عينيك على السحب الصادرة فى « سلع » ! ثم رفع صوته واتثنى قائلاً . إنّ الله قريب منّى ، وإنى لأراه فى هذا النور الذى يطفو على « سيناء » ، وفى هذا الفتون الذى يراق على بادية « التيه » ، بل إنى لأسمع صوته فى قسطلة الماء عند سفوح جبل « حور » . لم يعد فى هذه الحياة التى أخذتنى خطوبها وكوارثها ما أخافه ، وما أحرص عليه ، فالمجد الذى جنبنى طيفه فى ميدان « سلع » حيث يقتتل الناس إما زلفى « لقيصر » ، وإما زلفى « لفروة ابن عمرو » ، قد تمثل لى عند هذه القنن الرفيعة بألوانه وأنواره وطيوبه ونغماته ، وروحه الساكن الوادع ، وشبحه المضىء ، وجرسه العذب ؛ إنه ليخلع على جسمى الذى قرسه برد العشيّة دفء نفسه لأموت محترقاً فى سناه ، فذلك أمثل من موت يزحمنى ظله الصادر عند رواميس « سلع » ! ولأن تحتوينى هذه الأرض المقدسة أفضل من أن تحتوينى هذه الأرض التى لا تعرف القداسة !

وعبثاً كانت تصدّه عن ميوله ومطامعه ، فلقد أحبّ أن يموت على جبل « حور » كما مات موسى النبىّ ، وكما مات هارون النبى ، ثم هو إلى ذلك شاعر يحب فنه وما يليق بالشاعر أن يموت فى الأرض التى لا تتصدع فيها السحب والبروق ، ولا يزهر على حواشيها الآس والنعناع والورد

وإنهما ليتحاوران ويتساجلان فى غير جدوى ولا طائل ، إذ حملت أعراف الليلة الساجية ترجيع الأبواق ووادى « سلع » فرجفا رعباً . وقالت « سافو » : إنها أبواق « فروة » يا « كريستيا » ، وإنه المنتصر على « هراقليوس » . ناشدتك الله أن تمضى معى أو تبقى وحدك على هذه القنن

ورأى المسكين وقد أذكره صوت البوق حاضره أن يلحق بها ، ولكنه لم يكد يبرح مكانه حتى حفت البروق وتوامضت على مدى واسع فبانت له كرة أخرى جبال «سيناء» وصحراء «التيه» فألاعته الأضواء الغامرة وأحرقت أحلامه ، فوقر فى ذهنه أن يبقى فى جبل « حور » طوال ليله فلا يفارقه ولا يخفره ولا يمل الطواف بشعافه ورعانه ، ولا يسأم الهبوط إلى حضيضه وسفحه ، نعم إنه مريض وإنه مُدْنَف وإنه ذلك المنفى الذى يقبس أغانيه من نفس عامرة بالألم زاخرة بالشجن ، ولكنه على مرضه ودنفه كان يلذ أعراف هذه الأماكن المقدسة ويرى فيها العافية التى يشتاقها ويحب أن يغنى أغانيه فى هذه الأصلاد بصوت الشاعر الملهم لتسمعها روابى « سيناء » كما سمعت صوت النبى الملهم ؛ وكان يشعر بقرب النهاية فنازعه شعوره الى المكوث فى هذه الأرض حتى يأخذ الله وديعته فيرقد رقاده الأبدى فى شعفة تطل على « الأردن » وعلى « حرمون » وعلى « بيت القدس » !

لقد باح لها بخواطره ، وقال لها إن فى « سلع » مكاناً للبطولة الرائعة ، وليست تعرف فيه ذلك البطل القارع فمن حقه أن يجد مكانه على الرُّبى الشم حيث تترقرق أضواء السماء ، وحيث ذكاء الشاعر يبحث عن السنى والسناء ! فلما سمعت قوله لم تأنف أن تطرحه فى الجبل فتولت عنه وتدفقت فى سيرها تحت ضياء الكواكب ، وما زالت تمعن فى الهبوط حتى استقبلت السفح وواراتها عن عينىْ « كريستيا » فجاجٌ وشعاب

وقلب عينيه فى هذه الأرجاء الفيحاء فاذا هو وحده على الشعفة السامقة يحيط به عالم تطفو على حواشيه أشباح وأرواح ، وتجرى فى سمائه كواكب متقاربة متباعدة ، وتنوح على أطرافه وجنباته ريح ذات هدير وصليل ، وتخرج من جروفه وغيرانه أصوات كأنها عزيف الجن ، يضاف الى هذه المشاهد الراعبة قبسٌ يَخْطَفُ على سيناء فى أقصى الأفق !

لقد روعته العزلة فتمايد وتمايل ، وخيل إليه أن بهذه النجوم الدانية من القلل والقنن عيوناً تنظر إليه ، ففغر فمه وبرق بصره ، ثم تساقطت الشهب فى الأبعاد النائية كأنها الحريق الشاعل . فغشيته ذهلة ألمة ، وخيل اليه أن السماء قد ألقت اليه بنارها ودخانها فجفا مكانه على القبر وطفق ينادى : « سافو » ! لك الله يا أخيَّة أينَ أنتِ ؟

وهام على وجهه فما ينحدر من رابية حتى يغيب فى أخدود ضيق ، فاذا حسر الأخدود عنه أمسى فى غار مظلم ، فاذا أوغل فى ظلمة الغار تساقط الماء على ثوبه من صدوع فى الصخر النابى فتندّى وَقَرْسَهُ البرد ، ثم يخرج من الغار فاذا هو بعد طوفة جاهدة عند سفح الجبل وإذا « سافو » لا تزال على السفح كأنها كانت تتوقع أن تضجره العزلة وتخيفه الوحدة فيأنس الى اللحاق بها

ورأت « سافو » اليه تحت ضياء العشية فنادته بصوتها الرقيق الناعم : إنى أخاف عليك برد الجبال فهلم فاتبعنى الى « سلع » فلعلك تجد عندها ذلك القبس الذى يضرم شعورك

وكان الانحدار الى « البتراء » سائغاً ولذيذاً فأحوتهما معاً طريق قديمة نقرت فى الجلامد فأوغلا فيها ، وأظلتهما حجارتها ، الناعمة الملساء ، وتراءت لهما فى اليمين وفى الشمال أسوار حمراء بلون العقيق ، ولكنها أسوار عظيمة لم تتحيفها غاظلة ولم تتخللها قرون وشعف ، فجازا الطريق الى الوادى وطلعت عليهما غيران ضيقة ولكنها قصيرة ، ثم إذا هما يخرجان الى طريق تدفع الى دغل تكاثفت على حضيضه النباتات فسلكا فى اجتيازها ساعتين ثم طلعت عليهما قبور « سلع » الأولى

ولم تكن سلع قد أطلت عليهما بعد ، فلقد وارتها حوائط من الحجر الصلد فارتدّا الى ناحية الشمال وفزعا الى الجانب المظلم من صخور لا تضيئها أنوار السماء ، ورأيا الى القبور المحفورة وقد تراكب بعضها فوق بعض وفتحت أشداقها وحسرت عن ثقوبها فأخذتهما أشمة خفيفة تزلق إليهما من الجبال ، وسحرهما إطلال هذا المشهد بعد تلك السياحة الكامدة فأحسا الحياة وطفقا يتأملان معاً فى هذه المدافن المعلّقة بين السماء والغبراء ، وسرّهما أن يتعرفا الديار والرسوم والأطلال ، ولذهما أن خيالة « سلع »

عادت تطوف بصدريهما الراعشين

فى أعماق هذا الجرف الذى تحميه من كل نواحيه أطواد وأصلاد تنام مدينة « سلع » عن كثب من أطلالها وقصورها وخرائبها وينبوعها الثرّ !

جلس « كريستيا » على عمود رخامى كان جاثماً على الأرض، فجلست « سافو » حياله وطفقا معاً ينظران فى ذهلة إلى هذه الروائع الفواتن يحفهما صمت ويغشاهما سكون، ويخترق آذانهما هدير الماء ودفعه على الأصنام المتداعية والعمد المنهارة فى ظلٍّ ظليل من أشجار الغار الواشجة

لم يحْرُ « كريستيا » على الهمس فلقد أمالته الصور البارعة إلى غرقٍ وأنسته ذلك الألم الذى تحيفه خلال طوافه بقنن جبل « حور » ونزوله إلى حدور وادى « العربة » بل لقد ألهته قسطلة الماء فى الصعيد المهجور عن أولئك الناس الذين نفروا إلى قتال « قيصر » تحت لواء « فروة بن عمرو » فما عادت صورهم تمرّ بصدره، وكذلك كان شأن « سافو » فلقد غرقت مثل غرقهِ وسبحت مثل سبحه، وأنستها هذه الظلال الندية الرخيَّة تلك الثورة التى عصفت بنفسها الرقيقة فى ذلك الوادى الذى تتلاقى عند قيعانه وكثبانه طرق « أيلة » والبحر الراعب، فأية فتنة هذه التى هدهدت التياع الملتاعين وحملت إلى النفوس الضارعة بعض العزاء الذى تحبه وتأنس إليه

هذه الرائعة ما كانت تعدو ماضىَ « سلع » فى هذه الدمن التى يغنِّيها الماء الدافق الهادر غناءَه الشجىّ من أبعد عصور التاريخ لا تستطيع النفوس الكامدة أن تستبقى حزنها إلى الأبد، إذ لا معدى لها عن استمراء الوحدة والاصغاء إلى حديث حياةٍ منقرضة وإذ هى محمولة على الشرود فى جلال الموت وفى روعة السماء

معروف الارناؤوط
عضو المجمع العلمى العربى

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الكلام خيالى ولا أصل له)

— ٦ —

كذبت على الله وعلى نفسى حين زعمت أنى معجب بالسمراء وأنى لا أحب الثوب الأزرق .. لا والله .. فما أبالى السمراء ولا اعجاب لى بها . وكل ما فى الأمر أنى رأيتها كثيرة المرح فراقنى أن تتاح الحياة هاشة باشة، وأن تضحك للدنيا، ولكن هذا قد يكون عن خفة لا عن فلسفة، وأنا مفطور على الجد، ولهذا سهل أن أتعود الاحتشام، ولكن وطأة الحياة ثقلت على كاهل صبرى، فأنا لا أزال ألتمس التسرية والترفيه بما يدخل فى طوق من الوسائل، ومن هنا هذا التناقض الذى يراه الناس فى طباعى . ولا تناقض هناك فيما أعلم، وإنى لكما كنت طول عمرى، وانما اختلفت المظاهر، وأولاى معقودة بأخراى، ولقد كنت فى صباى يائساً من الخير والسعادة فى هذه الحياة، وأنا الآن أكفر بهما، ولكنى كنت فى حداثتى يحزننى عجزى عن الاطمئنان إلى الخير فأكتئب وأتجهم وأروح أعذب نفسى وأقطع قلبى حسرة، وأغرانى هذا بالزهادة ونشدان الراحة — على الأقل — بتوطين النفس على اليأس ورياضتها على السكون اليه؛ وكنت أقول لنفسى جادا إنى تهالكت فما أفدت إلا الحرمان وإلا الظمأ والالتياح، وإنى طلبت اللذات فما وجدت فيها لعاقل غناء . . فلعل الزهادة تحسم داء لم أجد فى الطلب شفاء منه . ولكنى ما لبثت أن وجدت أن رفض الحياة يزيد المرء إجماءً، وأن الزهد ليس منجى، وأن النفس تخسر به طيبها ورضاها، وأن الذى لا يمد يده ليجنى ويقطف لا يحق له أن يزعم أنه حرم الثمار التى يراها على أفنان الشجرة، وقد لا يفوز الطالب الساعى بكل ما يبغى، ولكنه لا شك خليق أن يظفر بكثير مما هو دونه، فاذا فاتتك الغاية القصوى فقد لا يفوتك ما دونها من المتع، فالطلب أولى، والسعى أوجب، لأن الطلب والسعى

من مقتضيات الحياة ، والحياة هي الحركة لا السكون ولا الجمود ، والزهد قهر للنفس ، والطلب فيه كذلك قهر للنفس ، وقهر النفس مع افادة ما يمكن أن يفاد خير من قهرها مع الحرمان ، والدنيا تسير على مقتضى نواميسها هي ، لا على هوانا نحن ، فسيان أن تضحك لها وأن تعبس ، وللضحك إذن خير وأحزم وأولى بالعاقل

وعلى ذكر الضحك أقول إني أعجب لذات الثوب الأرجواني لماذا لا أراها تضحك أبداً ؟ ؟ إن من تعاريف الانسان أنه حيوان يضحك — أي يستطيع الضحك — ولكن هذه لم أرها تضحك إلا مرة واحدة ، فعظم وقع ذلك في نفسي لندرته ولأنه كان فلتة مفردة ، فوجهها كالقمر — سوى أن ماء الحياة والشباب والصحة يجري فيه — أعني أن تعبيره لا يتغير ولا يختلف ولا يتعدد ، وقاتل الله البعد ! وما يدريني ؟ ؟ فلعلها تبتسم ولكني لبعدها لا أراها رؤيتها ، ولست أذكر أني رأيت وميض عينيها ، أو أن عذوبة نظرتها أو قوتها حركت قلبي ، أو أن ابتسامتها الحلوة أو الساخرة أغرتني بالأمل أو الحزن .. ولكني على هذا سمعت صوتها .. نعم سمعته على الرغم مما يفصلنا من البعد .. وكانت الليلة مظلمة والحر شديداً ، وكنت قاعداً في الشرفة والشجر على جانبي الطريق كأنه صور مرسومة من فرط الركود ، فرأيتها تميل على جانب الشرفة ؛ ونظرت فاذا جارتها في شرفتها وبينهما نحو مترين أو زيادة ، وانطلقتا تتحدثان بصوت خفيض في أول الأمر ، ولم أكن أرجو أن أسمعهما ، ولا كنت آمل ذلك وإذا بالصوت يرتفع في الليل الساكن وإذا بصوت فتاتي يحمله إليّ .. ماذا ؟ لا أدري ! فما كان هناك نسيم حتى أقول إنه حمله .. ولكنه صافح أذني على كل حال ، وقد شق علي أن أكون بحيث أسمع حديثهما ، ولكني لم أكن أتسمع ، وكان بيني وبينهما عشرون أو ثلاثون متراً — إذا حسبت الارتفاع — فاذا كانتا قد شاءتا أن تتكلما بصوت يسمعه الجيران فأظن أن هذا ليس ذنبي . ولولا الحر والركود الخانق لدخلت حجري وأويت إلى حيث لا يبلغني الصوت ، وكنت ساعة تهدّى الى الصوت أنظر الى الطريق الخالي الموحش في هذا الليل الساكن — ولو شئت لقلت الراكد ولكني شاكر — وكنت ربما رفعت عيني إلى النجوم الخفّاقة اللمان ، وإذا بالصوت يقع في مسمعي فيكاد قلبي يقف . . . ولم يخالجني شك في أن هذا صوتها هي لا صوت الجارة . . ولا أدري من أين جاءني هذا اليقين ؟ ! وياله من صوت ! ! . رنان . . نافذ . . عميق الوقع . . فلو كنت تغنين لما كان أحلى ولا أسحر . . بل أنت كنت تغنين .. فما يرتفع الصوت بهذا الوضوح البلوري ولا يخفت — في غير سمود — إلى مثل الهمس ، ويبريه الشجي أحياناً ، ثم يعلو كأنه صيحة الحرية ، ثم يضطرب ويتردد كأنه زفرة الأسى التي تتمرد على الكتمان — أقول ما يكون الصوت هكذا إلا في الغناء . . ولا أدري لماذا ، ولكني لم أكد أسمع صوتك حتى خيل إلى أني أسمع « أورفيوس » يناشد حبيبته ويدعوها إليه ويصيح « ماذا تراني أصنع بغير يوريديس ؟ » . نعم . . كذلك بدا لي أن صوتك الذي هفا إلي على جناح النسيم الراكد . . صوتك الحافل بالأسى المكتوم والرغبة المكبوتة . ينادي . . . ويدعو . . ثم لم أعد أدري ماذا جرى لي ولا ماذا أصاب الدنيا حولي ؟. وأحسست أن حياتي قد التف عليها صوتك كما تلف الحبال على أعضاد الأسير . . وكأنما تسرب وجودي في وجودك الغامض . . . وأطفئت الأنوار . . وازداد الليل حولي ظلاماً وصار السكون أعمق ، وأنا واقف لا أشعر إلا بخفق هذا الصوت اللائكي في نفسي ، وطلع النهار — نهار الناس — وأنا مائل على حافة الشرفة أنظر ولا أرى . . .

وقد صارت لي بعد تلك الليلة حياتان تتصارعان — أنا الذي كنت لو تصدقينني ، أقضي أيامي ساكناً لا يكاد يسرني أو يسوءني شيء — أما الآن فاني أثب وأنتقل من الرغبة الجامحة إلى المقل الجاف المحل . وأحس دمي الحار ينبض في عروقي — لا بل أراه — وقلبي يثب إلى حلقي فتتعلق أنفاسي وتكاد تحتبس ، ثم تغمرني موجة من المرارة الأليمة . . ويسخر مني عقلي ويهزأ مما تخيلته من صيحة أورفيوس إذ يدعو اليه يوريديس . وما دعا إلا قلبي ، وأين مني أورفيوس ؟ وأين منك تلك التي لم أعرفها الا منّ « جلوك »

وليت من يدرى أين أنت الساعة ؟؟ إن الليل ساج كليلتنا تلك ، والدنيا ساكنة تنتظر أن تخرجى اليها فى هالة من الحسن ، وأنفاسى معلقة وأذنى مرهفة لأسمع ، ولى على هذه الشرفة ثلاث ساعات طويلات المدد ، ولست أحس تعباً أو أشعر بقلق ، فانى كالجنون أو المخمور ، وإنى لأرسل اليك من صيحات القلب ما لا يسمعه سواك لو أنك تصغين . . ثلاث ساعات وأنا أدعوك وأنت لا تجيبين . . كلا !! صوتك الملائكى لا يسمع مرة أخرى ، ولا ينطلق فى هذا الليل الساجى لينعشه ويحييه . وإن نوافذ بيتك لمفتوحة ، وإن الحجرات لمضاءة ، ولكنها ساكنة كأنها مهجورة ، حتى ليفزعنى النور الذى يخرج منها

لم أسمع صوتك بعد ذلك ولكنى رأيت الوردة التى فى يدك وكنت تنفضين عنها الطل أو الماء ، ثم غبت بها واختفيت بعدها كأنما يكفى غذاء لروحى أن أرى معك وردة حمراء . . . كلا . . . لست أريد ورداً وإنما أريد أن أسمع ذلك الصوت وأنعم به ، وأن أجتلى عينيك وأرى فى صقالها روحى ، وأن أرى رجفة شفتيك وأنت تبادليننى الاعراب عما ضاق الصدر بما أجن منه والقلب بما وجد ، وأن أحس خفق قلبك وتحسين دقات قلبى . . . فاذا كنت تؤمنين بما أومن به — وما أومن من الناس إلا بكِ وحدكِ لا شريك لكِ — وإذا لم تكونى خيالاً ينسخه النور . . وإذا كنت أنثى . . وكان لك قلب ، فبالله الا ما أسمعتنى هذا الصوت مرة أخرى !! وهل أقل من ذلك ؟ ؟

إنك جميلة وحزينة يا من لا أعرف اسمها — ولو كنت أعرفه لضننت به على الدنيا التى تجملينها — هذا ما قاله لى صوتك حين سمعته فى لجة الليل الساكن . وقد رأيتك بعد ذلك فى الشرفة وفى يدك الوردة الحمراء ونظرت الى عينيك الواسعتين تحت حاجبيهما المستقيمين فأعادت على نظرتهما ما كان صوتك قد أوحى به الى — وإلا فلماذا يرتخى الهدب الطويل الأوطف إلا ليحجب ما عسى أن تشى به النظرة من الخواطر ؟ ؟ ورأيت فمك الجميل وشفتيك الورديتين خلقة لا صناعة . . . شفتيك اللتين لا تعرفان كيف تبتسمان . وفكرت فى هاتين العينين اللتين لا أجتلى فيهما البشر والرضى ، وفى هذا الفم الحلو الذى لا تريدين أن تدعيه يفتر عن ابتسامة — ولو ساخرة — فكرت فى ذلك لحظة وان كانت عيناك وشفتاك جديرة بالتأمل دهراً كاملاً . . .

ومن أعاجيبك أنى أراك أحياناً مسرورة ويبدو لى أنك قريرة العين ولكن لا ابتسام ، ولا ضحك ، ولا شىء من مظاهر السرور المألوفة . . . فقد لاحظتك ودرستك وخبرتك بقدر ما يتيسر ذلك لبعيد مثلى لا يراك إلا من النافذة ، وأعجبت بشبابك وجمالك ورزانتك وكبريائك أيضاً ، وبذوقك السليم فى الثياب والزينة . . ودرست الذين حولك من أهلك . . . وأحسب هذا الرجل المحتشم أباك وأظنك ورثت عنه هذا الجد الصارم والتحفظ الشديد . . وتلك أحسبها أمك وان كانت تبدو أصغر من أن تكون أماً . ويعجبنى منك ومنها أنكما تبدوان كصديقتين لا كأم وابنتها . والآخرون . . ولكن مالى وهؤلاء جميعاً ؟ ؟

وقد رأيتك أمس تخرجين مع أمك أو يحسن أن أسميها صديقتك فانها أشبه بذاك — وكنت واقفة بالباب تنتظرين أن تلحق بك وفى يدك وردة صغيرة تشمينها . . وانى لمجنون . . وإن لك أن تقولى إنى طفل يرجو ويؤمن ، أو رجل يحلم ، ولكنى أعتقد أن هذه الحركة الرقيقة كنت أنا المقصود بها ، فما كان فى الطريق ولا فى النافذة غيرى . . نظرتِ الى ناحيتى ثم رفعت الوردة إلى أنفك الجميل وبعثت الى بهذه الوسيلة رسالة . . رسالة من مجهولة الى مجهول . . وخيل الى — وقد أكون واهماً — أنى لمحت امتقاعاً فى لونك حينئذ فزادت الرسالة غموضاً على جمالها . . ثم مضيت وما لبثت أن غبت عن عينى . . وبقيت أنا مسمراً فى مكانى لا أبرحه انتظاراً لعودتك . . مضت ساعة وأخرى وثالثة وأنت لا تعودين . . واذا بك فى الشرفة !! فان كنت قد دخلت قبل ذلك بكثير ورأيت عينى التى لا ترتفع عن الطريق حتى لا يفوتها منظرك وأنت عائدة ، فلا شك أنك قد ضحكت من هذا الأبله المخبول الذى ينظر ولا يرى من فرط الاضطراب . . لا بأس . . واذا كنت لم أرك فانك فى قلبى . . قلبى الذى صار محراباً لحسنك . . وإنى لأحس أنى أصبحت شيئاً مقدساً بحلولك فيه . . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

بين عالمين

نظام الطلاق في الاسلام

للأستاذ أحمد محمد شاكر

نشرتُ في الرسالة (العدد ١٥٧ في ٦ يوليو سنة ١٩٣٦) كتاب أستاذنا الكبير العلامة شيخ الشريعة ، امام مجتهدي الشيعة ، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، في نقد ما ذهبت اليه في كتابي (نظام الطلاق في الاسلام) من اشتراط الأشهاد في الطلاق وفي الرجعة ، خلافاً لما ذهب اليه أئمة الشيعة من اشتراطه في الطلاق دون الرجعة ، وقد انتصر الأستاذ — حفظه الله — لمذهبهم بأبدع بيان ، بما لم نجد له نظيراً فيما بين أيدينا من كتب العلماء من الشيعة الأمامية

ووعدت أن أناقش الأستاذ فيما ارتآى واختار ، وأن أبين وجهة نظري ، ملتزماً ما رسمته لنفسي من شرعة الانصاف في البحث والنظر « فأكشف عن حجة خصمي وعن حجتي ، لي وللناظرين : فامّا انتصر قول خصمي ورجعتُ عن قولي ، وإما انتصرت لقولي وزدته بياناً وتأييداً ، لا أبالي أي ذينك كان »

ووفاءً بما وعدتُ أنشر هنا ما قلته في الكتاب (ص ١١٨ — ١٢١) :

« قال الله تعالى في أول سورة الطلاق : (يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذَوَيْ عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله) »

« والظاهر من سياق الآيتين أن قوله (وأشهدوا) راجع الى الطلاق والى الرجعة معاً ، والأمر للوجوب ، لأنه مدلوله الحقيقي ، ولا ينصرف الى غير الوجوب — كالندب — إلا بقرينة ، ولا قرينة هنا تصرفه عن الوجوب . بل القرائن هنا تؤيد حمله على الوجوب : لأن الطلاق عمل استثنائي يقوم به الرجل — وهو أحد طرفي العقد — وحده ، سواء أوافقته المرأة أم لا ، كما أوضحنا ذلك مراراً ، وتترتب عليه حقوق للرجل قِبَل المرأة ، وحقوق للمرأة قبل الرجل ، وكذلك الرجعة ، ويخشى فيهما الانكار من أحدهما ، فاشهاد الشهود يرفع احتمال الجحد ، ويثبت لكل منهما حقه قِبَل الآخر . فمن أشهد على طلاقه فقد أتى بالطلاق على الوجه المأمور به ، ومن أشهد على الرجعة فكذلك ، ومن لم يفعل فقد تعدى حدّاً الله الذي حده له ، فوقع عمله باطلاً لا يترتب عليه أي أثر من آثاره »

« وهذا الذي اخترنا هو قول ابن عباس . فقد رَوَى عنه الطبري في التفسير (ج ٢٨ ص ٨٨) قال : ان أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد رجلين كما قال الله : (وأشهدوا ذوي عدل منكم) . عند الطلاق وعند المراجعة . وهو قول عطاء أيضاً فقد روى عنه عبد الرزاق وعبدُ بن حُميد قال : النكاح بالشهود والطلاق بالشهود ، والمراجعة بالشهود . نقله السيوطي في الدر المنثور (ج ٦ ص ٢٣٢) والجصاص في أحكام القرآن بمعناه (ج ٣ ص ٤٥٦) . وكذلك هو قول السُّدّيّ . فقد روى عنه الطبري قال : في قوله : (وأشهدوا ذوي عدل منكم) : على الطلاق والرجعة »

« وذهب الشيعة إلى وجوب الاشهاد في الطلاق وأنه رُكن من أركانه ، كما في كتاب (شرائع الاسلام ص ٢٠٨ — ٢٠٩ طبعة سنة ١٣٠٢) ولم يوجبوه في الرجعة ، والتفريق بينهما غريب ، ولا دليل عليه »

« وأما ابن حزم فان ظاهر قوله في المحلى (ج ١٠ ص ٢٥١) يفهم منه أنه يرى اشتراط الاشهاد في الطلاق وفي الرجعة ، وإن لم يذكر هذا الشرط في مسائل الطلاق ، بل ذكره في الكلام على الرجعة فقط . قال : فان راجع ولم يشهد فليس مراجعاً ، لقول الله تعالى : (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم) فقرن[1] عز وجل بين المراجعة

(١) في النسخة المطبوعة من المحلى (فرق) وهو خطأ مطبعي واضح من سياق الكلام ، وقد صححناه في الكتاب على غالب الظن (لم يفرق) إذ لم تتمكن حين الكتابة من مراجعة النسخ المخطوطة بدار الكتب ، ثم رجعت إليها بعد ، ففي نسخة المحلى (رقم ٤٥ فقه حنبلي) هذه الكلمة (ففرق) ولكنها غير واضحة النقط ، وهي خطأ كالنسخة المطبوعة ، وفي النسخة (رقم ١٥ فقه حنبلي) (فقرن) وهي واضحة الحروف بينة النقط ، وهي الصواب ، والحمد لله . ونرجو القراء أن يصححوها في المحلى وفي كتابنا

والطلاق والاشهاد ، فلا يجوز افراد بعض ذلك عن بعض ، وكان من طلق ولم يشهد ذوى عدل ، أو راجع ولم يشهد ذوى عدل : متعدياً لحدود الله تعالى ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ »

« واشتراط الاشهاد فى الرجعة هو أحد قولى الشافعى . قال الشيرازى فى المهذب (ج ٢ ص ١١١) : لأنه استباحة بضع مقصود ، فلم يصح من غير إشهاد ، كالنكاح ، وهو أيضاً أحد قولى الامام أحمد . أنظر المقنع (ج ٢ ص ٢٥٩) والمغنى (ج ٨ ص ٤٨٢) والشرح الكبير (ج ٨ ص ٤٧٢ — ٤٧٣) »

« والقول باشتراط الاشهاد فى صحة الرجعة يلزم منه أنها لا تصح إلا باللفظ ، ولا تصح بالفعل ، كما هو ظاهر . وهو مذهب الشافعى »

هذا ما قلته فى المسئلة ، وقد رد عليه الأستاذ شيخ الشريعة من جهتين : من جهة لفظ الدليل وسياق الآيات الكريمة ، ومن جهة الحكمة الشرعية والفلسفة الاسلامية . فقال فى الوجه الأول : « إن السورة الشريفة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه ، حتى إنها قد سميت بسورة الطلاق ، وابتدأ الكلام فى صدرها بقوله تعالى : (إذا طلقتم النساء) ثم ذكر لزومَ وقوع الطلاق فى صدر العدة ، أى لا يكون فى طهر المواقعة ولا فى الحيض ، ولزومَ إحصاء العدة وعدمَ إخراجهن من البيوت ، ثم استطرد الى ذكر الرجعة فى خلال بيان أحكام الطلاق ، حيث قال عز شأنه : (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف) أى اذا أشرفن على الخروج من العدة فلكم إمساكهن بالرجعة أو تركهن على المفارقة ، ثم عاد الى تتمة أحكام الطلاق فقال : (وأشهدوا ذوى عدل منكم) أى فى الطلاق الذى سيق الكلام كله لبيان أحكامه ، ويستهجن عوده الى الرجعة التى لم تذكر الا تبعاً واستطراداً »

وأما أن السورة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه حتى إنها سميت سورة الطلاق : فنعم . ولكن هل معنى هذا أنها مسوقة لأحكام إنشاء الطلاق وإيقاعه : من اشتراط حصوله فى قُبُل العدة ، ومن وجوب الاشهاد عليه ، لا غير ؟! ما أظن أحداً يرضى أن يدعى ذلك ! ولو سميت السورة سورة الطلاق !! فان فى السورة اثنتى عشرة آية ، فيها نحو من خمسين ومائتى كلمة ، لم يذكر فيها من الأحكام الخاصة بانشاء الطلاق وإيقاعه إلا إحدى عشرة كلمة فى الآيتين الاوليين . ثم سيق نصف السورة تقريباً لبيان الأحكام المتعلقة بالطلاق عامة ، من إنشاء وإيقاع ، ومن إمساك بمعروف أو مفارقة بمعروف ، ومن عدة وانفاق وإسكان وإخراج وأجرة إرضاع ، ومن بيان لحدود الله فى الطلاق ووعيد شديد لمن تعداها ، ومن ترغيب فى تقوى الله والتوكل عليه ، كل أولئك فى الآيات السبع الأولى من السورة الكريمة ثم سيق سائرها لأشياء أخرى ليست لها علاقة بالطلاق

فهل كل هذا ذكر تبعاً لسبع كلمات فى الأحكام الخاصة بانشاء الطلاق فى الآية الأولى ، ولأربع كلمات فى الآية الثانية ؟! كلا ! إنها سورة الطلاق ، ذكر فيها كثير من أحكامه عامة ، وسيق نحو نصفها لارشاد الرجال الى ما يجب عليهم عند الطلاق وبعده ، وكل ذلك أصل مقصود ، لم يذكر شىء منه تبعاً ولا استطراداً

ولو قرأ القارئ الآيتين الأوليين بأناة وروية ، وتأمل فيهما على ما تقتضيه الفطرة العربية المستقيمة والذوق السليم ، لتبين له أن الأمر بالاشهاد راجع الى الأشياء الثلاثة المذكورة فى الآيتين ، وهى الطلاق : أى انشاؤه ، والامساك بالمعروف : أى الرجعة ، والمفارقة بالمعروف : أى انفاذ الطلاق بتسريحها باحسان عقيب انقضاء عدتها ، وأنه لو كان المراد الأمر بالاشهاد عند انشاء الطلاق فقط لكان موضع ذكره فى صدر الآية الأولى عند قوله : (فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة) ، أما تأخيره بعد ذكر الامساك أو المفارقة فانه صريح فى عودته الى جميع ما تقدم عليه

وهذا هو الذى فهمه أكثر العارفين باللغة والمتمكنين منها ، ولم يستهجن أحد منهم عوده الى الرجعة ، ولا ادعى أنها ذكرت تبعاً واستطرادا ، فابن عباس وعطاء والسدى وغيرهم فهموا أن الأمر بالاشهاد راجع الى الطلاق والى الرجعة معاً ، ولذلك قال ابن حزم « فقرن عز وجل بين المراجعة والطلاق والاشهاد ، فلا يجوز افراد بعض ذلك عن بعض »

وكذلك قال الامام محمد بن ادريس الشافعى ، وهو من أعلم الناس باللغة وأفصحهم ، فقد قال فى كتاب الأم (ج ٥ ص ٢٢٦) : « ينبغى لمن راجع أن يشهد شاهدين عدلين على الرجعة ،

لما أمر الله به من الشهادة ، لئلا يموت قبل أن يقر بذلك ؛ أو يموت قبل تعلم الرجعة بعد انقضاء عدتها ، فلا يتوارثان ان لم تعلم الرجعة فى العدة ، ولئلا يتجاحدا أو يصيبها فتنزل منه اصابة غير زوجة »

وقال محمد بن جرير الطبرى فى التفسير (ج ٢٨ ص ٨٨) : « وقوله : وأشهدوا ذوى عدل منكم . وأشهدوا على الامساك إن أمسكتموهن ، وذلك هو الرجعة »

وقال العلامة جار الله الزمخشرى فى الكشاف (ج ٢ ص ٤٠٣) : « وأشهدوا يعنى عند الرجعة والفرقة جميعاً ، وهذا الاشهاد مندوب اليه عند أبى حنيفة ، كقوله : وأشهدوا اذا تبايعتم . وعند الشافعى هو واجب فى الرجعة مندوب اليه فى الفرقة . وقيل فائدة الاشهاد ألا يقع بينهما التجاحد ، وألا يتهم فى امساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعى الباقى ثبوت الزوجية ليرث »

وقال أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط (ج ٨ ص ٢٨٢) : « وأشهدوا : الظاهر وجوب الاشهاد على ما يقع من الامساك وهو الرجعة ، أو المفارقة وهى الطلاق . وهذا الاشهاد مندوب اليه عند أبى حنيفة ، كقوله : وأشهدوا إذا تبايعتم . وعند الشافعية واجب فى الرجعة مندوب اليه فى الفرقة . وقيل : وأشهدوا يريد به على الرجعة فقط ؛ والاشهاد شرط فى صحتها ، فلها منعه من نفسها حتى يشهد . وقال ابن عباس : الاشهاد على الرجعة وعلى الطلاق يرفع من النوازل أشكالاً كثيرة »

وبنحوه قال سائر المفسرين ، حتى لقد قال العلامة أمين الدين أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى المفسر من كبار أئمة الشيعة الامامية ، المتوفى سنة ٥٤٨ فى تفسيره مجمع البيان (ج ٢ ص ٤٣٠ طبع ايران) : « وأشهدوا ذوى عدل منكم . قال المفسرون : أمروا أن يشهدوا عند الطلاق وعند الرجعة شاهدى عدل حتى لا تجحد المرأةُ المراجعةَ بعد انقضاء المدة ، ولا الرجلُ الطلاقَ . وقيل معناه : وأشهدوا على الطلاق صيانةً لدينكم ، وهو المروى عن أئمتنا ، وهذا أليق بالظاهر ، لأنا ان حملناه على الطلاق كان أمراً يقتضى الوجوب ، وهو من شرائط صحة الطلاق ، ومن قال ان ذلك راجع الى المراجعة حمله على الندب »

فهذا الامام الشيعى لا يرى مانعاً من جهة اللغة والسياق أن يرجع الأمر بالاشهاد الى الرجعة والى الطلاق معاً ، ويتأول ذلك . أو يدعى أن الظاهر رجوعه الى الطلاق فقط ، انتصاراً لمذهب الأئمة من أهل البيت فى اشتراطه الطلاق دون الرجعة

ومع ذلك فان مذهب الامامية أن الأشهاد على الرجعة مندوب اليه مستحب ، نص على ذلك فى كتبهم فى مواضع مختلفة

وقد ورد فى رواياتهم عن أبى جعفر الباقر عليه السلام فى بيان طلاق العدة أنه : « اذا أراد الرجل أن يطلق امرأته طلاق العدة فلينتظر بها حتى تحيض وتخرج من حيضها ، ثم يطلقها تطليقة من غير جماع ، ويشهد شاهدين عدلين ، ويراجعها من يومه ذلك إن أحب ، أو بعد ذلك بأيام قبل أن تحيض ، ويشهد على رجعتها الخ » نقله الطبرسى فى التفسير ، وشيخ الطائفة محمد ابن الحسن الطوسى فى التهذيب ، والامام السعيد أبو جعفر محمد ابن على بن بابويه القمى فى كتاب (من لا يحضره الفقيه) وغيرهم

فهذا يدل على أنهم يرون أن الأمر بالاشهاد فى الآية راجع الى الرجعة كما هو راجع الى الطلاق . وان كانوا لا يشترطونه فى صحة المراجعة ، فذاك لشيء آخر وهو اتباع الأئمة من أهل البيت . ولولا أن الأمر راجع اليهم لما كان لديهم دليل على استحباب الاشهاد فى الرجعة ، ولما قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : « ويشهد على رجعتها » فانه لم يرد طلبُ الاشهاد فيها فى شيء من القرآن إلا فى هذه الآية ، ولم يرد أيضاً فى شيء من الأحاديث الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كان قد ورد فى أقوال الصحابة والتابعين ، كما نقلنا عن ابن عباس وغيره

وكما روى أبو داود (ج ٢ ص ٢٥٧) ، وابن ماجه (ج ١ ص ٣١٩) عن مطرف بن عبد الله : « أن عمران بن حصين سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها ؟ فقال : طلَّقْتَ لغير سنة ، وراجعتَ لغير سنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعُد » ، وروى البيهقى فى السنن الكبرى (ج ٧ ص ٣٧٣) نحوه من طريق ابن سيرين عن عمران بن حصين ، واسناده عند أبى داود اسناد صحيح كما قال الحافظ ابن حجر فى بلوغ المرام (ص ٢٢٨)

وروى البيهقى باسناد صحيح عن نافع قال : « طلق ابن عمر امرأته صفية بنت أبى عبيد تطليقة أو تطليقتين ، فكان لا يدخل عليها الا بأذن ، فلما راجعها أشهد على رجعتها ودخل عليها »

فعبد الله بن عمر فهم من الآية أن الأمر بالاشهاد راجع الى الرجعة ولذلك أشهد على رجعة مطلقته ، وعمران بن حصين

فهم ذلك أيضاً ، وأنكر على من طلق ولم يشهد وراجع ولم يشهد ، واعتبره مخالفاً للسنة ، اذ خالف ما أمر به فى القرآن . وهما عربيان يفهمان لغتهما بالفطرة السليمة ، قبل فساد الألسنة ، ودخول العجمة على الناس

وأنا إذ أحتج بأقوال من نقلت قولهم من الصحابة والتابعين والمفسرين فانما أحتج بها من وجهة الدلالة العربية وفهم مناحى الكلام فى الآيات الكريمة ، لا من جهة الرأى الفقهى الاستنباطى ، فقد اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً ، فبعضهم يرى وجوب الاشهاد على الطلاق وحده ويجعله شرطاً فى صحته ، وبعضهم يرى وجوبه على الرجعة وحدها ويجعله شرطاً فى صحتها ، وبعضهم يراه مستحباً فقط فى الأمرين ، وبعضهم يراه واجباً فيهما ولا يراه شرطاً فى صحة واحد منهما ، كما يفهم من كلام عمران بن حصين

وأما الذى أراه وأذهب اليه فهو وجوب الاشهاد فى الأمرين جميعاً وأنه شرط فى صحة كل منهما ، لأنه ثبت من دلالة الآيتين فى أول سورة الطلاق أن الله سبحانه أمر الرجلين بالاشهاد عند الطلاق وعند المراجعة ؛ والأمر فى حقيقته دائماً للوجوب ، ولا يدل على الندب الا دلالة مجازية ؛ والمجاز لا يراد من الكلام الا بوجود قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقى ، ولا قرينة هنا أبداً تمنع ارادة المعنى الحقيقى ، وان ادعى الشوكانى فى نيل الأوطار ذلك إذ قال (ج ٧ ص ٤٣ — ٤٤) : « ومن الأدلة على عدم الوجوب أنه قد وقع الأجماع على عدم وجوب الاشهاد فى الطلاق ، كما حكاه الموزعى فى تيسير البيان » ، وما أكثر دعوى العلماء الأجماع ، خصوصاً فى مسائل الطلاق ! وهى دعوى عريضة ، يدعونها فى كثير من المواطن إذا ما غلبتهم الحجة وأعوزهم البرهان ، وليس لهم عليها أى دليل ! كما قلت فى (نظام الطلاق) وبينت هناك المعنى الصحيح للاجماع ، « لكثرة إرجاف المرجفين بدعوى الاجماع فى الطلاق ، ليُرعبوا العلماء المجتهدين الصادقين المخلصين ، ويصرفوهم عن البحث فيه ، أو يؤلبوا عليهم العامة والغوغاء . فتحاماه أكثرهم وأحجموا عنه ، إلا من ثبت الله قلبه وأيده بروح من عنده » (ص ٩٦ — ١٠٣)

(البقية فى العدد القادم)

أحمد محمد شاكر
القاضى الشرعى

دانتى أليجيرى

والكوميدية الالهية
وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

نفينا فى كلمة سالفة أن يكون دانتى أليجيرى قد تأثر فى كوميديته برسالة الغفران لأبى العلاء ، ورجحنا أن يكون قد احتذى ملحمة (الأنيد) للشاعر الرومانى الخالد فرجيل ، وأن تكون ثقافته الكبيرة واطلاعه الواسع على الأدبين المسيحى والاسلامى ، ثم إلمامه بالأدب الاغريقى القديم قد شقق له فجاج الخيال فاستطاع أن يضفى على كوميديته ظلالاً عبقرية جذابة من أشتات هذه الثقافات . فمن الأدب المسيحى استمد إيمانه الذى تفيض به الكوميدية ، واقتبس من رؤيا يوحنا اللاهوتى أمواهاً لوّن بها فصوله ؛ ومن قراءاته الاسلامية — وأهمها القرآن — اقترض أخيلة للجحيم خصبة قوية ارتفع بها الى ذروة الأدب السامى الرفيع ... أما من الأدب الاغريقى القديم فسنرى أن دانتى — إما بالذات وإما بالوساطة — قد قبس قبسة من أسطورة أرفيوس وقبسة أخرى من هرقل وقبسات غير هذه وغير تلك من الأساطير التى تتناول الدار الآخرة (هيدز)

على أن ملحمة الأنيد لفرجيل هى التى أوحت الى دانتى فكرة الكوميدية . وقد رجعنا الى الفصل الطويل الممتع الذى كتبه (بوكاشيو) عن مواطنه ، وقرأنا كذلك ما كتبه الأستاذ فلبّو فللانى فى مجموعته (Lives of Illustrious Florentines) وما كتبه الأستاذ العلامة ج . ا . سيموند عن دانتى ، والمقدمة التى كتبها إدمند . ج . جاردنر للكوميدية (ترجمة كارى سنة ١٩٠٨) ، ثم الفصل الطريف الذى عقده الأستاذ رتشارد جارنت عن دانتى فى كتابه (تاريخ الأدب الايطالى ص ٢٤ — ٥٢) فتأكد لنا أن دانتى كان معجباً الى غير حد بالشاعر الرومانى فرجيل وأنه كان يحفظ الكتاب السادس من الأنيد عن ظهر قلب ، وأن هذا الكتاب السادس (الذى سنلخصه للقراء) من الأنيد إن هو إلا صورة مصغرة لجحيم دانتى مع فارق الغاية واختلاف القصد بين كل من الشاعرين

أما أسطورة المعراج الملفقة[١] التي لفتتنا اليها الرسالة ، والتي خال بينها وبين الأساطير التي نحن بصددها علاقة أستاذنا الجليل صاحب (ذكرى أبي العلاء) فلنا فيها رأى سنذكره عند الكلام عن فردوس دانتي وعن جحيمه أيضاً

ولتشعب البحث نرى أن نضع بين يدى القارئ خلاصات موجزة لكل من رسالة الغفران (مع صور للجنة والجحيم من القرآن الكريم) ، ورؤيا يوحنا اللاهوتى ، وبعض مجازفات أوليسيز من (الأوديسه) ، وأسطورة أرفيوس ، ورحلة هرقل الى هيدز ، والجزء السادس من أنيد ڤرجيل ، ونتبع ذلك بخلاصة لكوميدية دانتي بأجزائها الثلاثة : الجحيم ، والمطهر ، والفردوس ، ثم نقفى بمقارنة تاريخية لن تضير شاعرنا العربى العظيم فى شيء ، لأنه ليس ضيرا ألا يكون دانتي قد احتذى مثال أبى العلاء أو قلد أسطورة المعراج

١ — رسالة الغفران

أرسل على بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح إلى أبى العلاء رسالة ضافية يستفتيه فيها عن بعض مشكلات النحو والصرف ، ثم يبدى « غيظه على الزنادقة والملحدين ، الذين يتلاعبون بالدين ، ويرومون إدخال الشُّبَه والشكوك على المسلمين ، ويستعذبون القدح فى نبوة النبيين ، ويتطرفون ويتذنون — إعجاباً بذلك المذهب : (تيه مُغَنٍّ وظرف زنديق) . . . » ويلم بأخبار بعض الزنادقة كبشار والقصار الأعور والصناديقى والوليد بن يزيد وأبى عيسى بن الرشيد والجنابى والحلاج وابن أبى العُذافر . . . الخ . . . ويشير إلى النبى صلى الله عليه وسلم إشارة لها معناها ، ثم يذكر شيئاً عن حجه وأسفاره وتحصيله لعلوم اللغة . . . ويتبسط فى الحديث كأنما رفعت الكلفة بينه وبين أبى العلاء فيضع بين أيدينا مفتاح رسالة الغفران . . .

وقد قرأنا كل ما كتبه أدباؤنا عن رسالة أبى العلاء فراعنا أن واحداً منهم لم يعرض لرسالة ابن القارح بكلمة ، وراعنا أن واحداً منهم لم يتوفر على دراستها ليدرك العلاقة بين الرسالتين ، وكان يؤلمنا أن بعض أدبائنا لم يكن يدرى من أمر رسالة الغفران شيئاً إلا أنها تهكم وسخرية بابن القارح ؛ مع أنها رجع الصدى لزندقته وإلحاده

قال ابن القارح فى ختام رسالته : « كنت بتنيس وبين يدى إنسان يقرأ ، ويحزن ، : (يُوفون بالنَّذْر ويخافون يوما كان شرُّه مستطيراً ؛ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ؛ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ؛ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ؛ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نَضرةً وسروراً ؛ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ؛ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانيةً عليهم ظلالها ، وذُلّلت قطوفها تذليلاً ؛ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ؛ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ؛ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ؛ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً : عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحُلُّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ؛ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ؛ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ؛ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ؛ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ... ...) قال ابن القارح : وكان القارئ يتألم ويبكى ، فخطر لى خاطر فقلت : أنا بضد هؤلاء القوم ، صلوات الله عليهم ! ! ، أنا لا أنذر ، ولا أفى ، ولا أخاف شقاء ولا عناء ! ! »

أفرأيت وسمعت ؟ ! ابن القارح ضد هؤلاء القوم ، صلوات الله عليهم ، لا ينذر ولا يفى ولا يخاف شقاء ولا عناء ! ! ومع ذاك فهو من علماء المسلمين الذين يفهمون معانى الآيات ، ويعرفون من هم أولئك الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . . . ابن القارح الذى ذكر فى رسالته أنه يغتاظ على الزنادقة والملحدين والطاعنين فى الأنبياء بغير الحق لا يهمه أن يكون بضد الأبرار المذكورين فى سورة الدهر ، ولا يهمه ألا ينذر ولا يفى فلا يخاف عناء ولا شقاء ؟ !

هنا مفتاح رسالة الغفران ! !

ومن أجل ذلك كان عجبنا شديدا كيف أن أحدا من أدبائنا لم يلتفت الى رسالة ابن القارح ليهتدى الى الروح التى أملت رسالة

(١) نقصد القصة التى وضعها نجم الدين الغيطى ولا نقصد حادث المعراج الذى نؤمن به ، وقد وفقنا إلى أشياء عن هذه القصة سترونها القراء ان شاء الله

الغفران .. لقد طرب أبو العلاء أيما طرب أن وجد أديباً مثله معجباً به يقدر أدبه وفلسفته وآراءه في الحياة والناس ويخاف مثله من مصارحة الناس بما يؤمن فيكتب بهذا الأسلوب المضمر الملغوز الذي يقول في أوله : إني أغتاظ على هؤلاء الزنادقة والملحدين مثل بشار والقصار والجنابي والحلاج ومن اليهم ممن يجدفون في الله وفي كتبه ويشككون الناس في أنبيائه ؛ ثم يقول في آخره إنه خطر له خاطر حين سمع قارئ سورة الدهر وهو يقرأ ويحزن ويبكي أنه بضد هؤلاء الأبرار (صلوات الله عليهم ؟ ! !) لأنه لا ينذر ولا يفي ، ولا يخاف شقاء ولا عناء !

طرب أبو العلاء أيما طرب لأنه وجد رجلاً مثله لا يؤمن بهذه الجنة التي عرضها السموات والأرض ، ولا بهذه الأنهار من لبن وعسل وخمر ، ولا بهذه العين السلسبيل ، ولا بهؤلاء الولدان المخلدين الذين يطوفون على المؤمنين بأكواب من فضة ، ولا بالحور العين ... ولا يؤمن بما جاء في أول سورة الدهر مما أعد للكافرين من سلاسل وأغلال وسعير .. وإذن ، فليكتب أبو العلاء الى ابن القارح ، وليخضع في كتابته الى ابن القارح لما تسميه السيكلوجية « تداعي المعاني » فيدخل به الجنة ... ولكن قبل أن يدخل الجنة لا بد أن يبعث ... وقبل أن يبعث لا بد أن يموت .. وسيلقاه عزرائيل ساعة الموت ، فلا بأس من أن يناقشه أبو العلاء مناقشة صرفية فكهة مضحكة ، فاذا دخل القبر وأغلق عليه وجاء الملكان منكر ونكير فأي بأس من أن يجادلهما كما جادل عزرائيل ، فاذا رفعا الأرزبة ليدقا بها عنقه فأي بأس أيضاً من أن يربكهما بمناقشة صرفية عن هذه الآلة المحطمة ليشغلهما قليلاً عن تعذيبهما إياه ... ثم أي بأس أيضاً من أن تستمر هذه المناقشة الصرفية في كل مكان من البعث ، الى أسوار الجنة ، الى الصراط ، الى داخل الجنة نفسها ، الى جهنم ... الخ أليس قد أراد أبو العلاء أن يشارك ابن القارح سخريته ؟ فلم لا يشاركه دعابته ؟ ولم لا يداعبه تلك المداعبة المضحكة بشرط ألا يفهم أنها دعابة إلا ابن القارح ، فاذا قرأها رجل غير ابن القارح وكان عارفاً باللغة وأسرار نحوها وصرفها راقه ذلك التحقيق الفقهي لتصريف تلك الكلمات التي لا يسمن تصريفها ولا يغني من جوع من مثل (عزرائيل وملك وإرزبة وجهنم ... الخ ...) فاذا كان القارئ مؤمناً وربما يسره الحديث عن الجنة وملاذها ويخيفه الحديث عن جهنم وآلامها شاقه حديث الرسالة عن متع الفردوس ، وهذا الأوز الذي ينتفض فيكون حورا عيناً باذن الله ، وسمك الحلاوة الذي يسبح في أنهار الخمر والعسل واللبن والأرى ... وأخافه ما يرى في السعير من صنوف المجرمين الكافرين الذين كذبوا بيوم الدين ... وما يكذب به الا كل معتد أثيم ...؟ !

وقد طرب أبو العلاء أيضاً ، وازدادت ثقته بصاحبه لأنه عرف فيه رجلاً يعطف مثله على الحيوان ..... لأنه « حدثه من يثق به وكان زاهداً (!) قال : كنت مع أبي بكر الشبلي ببغداد في الجانب الشرقي بباب الطاق ، فرأينا شاوياً ، وقد أخرج حملاً من التنور ، وإلى جانبه قد عمل حلاوى فالوذجا ، فوقف ينظر إليهما ، وهو ساه مفكر ، فقلت : « يا مولاي ! دعني آخذ من هذا وهذا ورقاقاً وخبزاً ، ومنزلي قريب ، تشرفني بأن تجمل راحتك اليوم عندي ، فقال : « ياهذا ، أظننت أني اشتهيتهما ؟ وإنما فكري في الحيوان كله !! لا يدخل النار إلا بعد الموت ... ونحن ندخلها أحياء ! »

إذن ، فليطمئن أبو العلاء إذا كتب إلى ابن القارح ، وليطف به من البرزخ إلى المحشر إلى الصراط ، ولتحمله وصيفة فاطمة الزهراء إلى داخل الجنة (زقفونه) ! وليجذبه ابراهيم إلى الجنة رغم أنف رضوان ... ولتكن هذه الحياة الأخرى مهزلة وملهاة مضحكة سواء أفي الجنه أو في الجحيم ... وليحرض ابليس زبانية جهنم على جذب ابن القارح ليكون معه في بطن سقر ..... وليتقارض هذان الساخران الملحدان الضحك على المؤمنين وإله المؤمنين وأنبياء المؤمنين وجنة المؤمنين ..... وليتقارضاه آمنين مطمئنين فليس أحد في عصرهما بقادر على أن يدرك أنهما يستهزئان بكل ذلك ..... بل كل الناس ستكبر أدب ابن القارح وأدب أبي العلاء .... لأن ابن القارح (يغتاظ على أولئك الزنادقة الملحدين مثل بشار والقصار والجنابي والحلاج لأنهم يجدفون في الله وينكرون أنبياء الله ويكفرون بكتب الله ويشككون الناس في كل ذلك) ، ولأن أبا العلاء قد أعطاهم صورة من الجنة تزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم وصورة من الجحيم تزيدهم منها خوفاً فوق خوفهم ... وليفرح النحاة بأبي العلاء لأنه حل لهم ألغازاً من الصرف والنحو لم يكونوا قادرين عليها ، وهي عند أبي العلاء

ضرب من الهذيان لا غناء فيه

على أن أشياء أخر فى رسالة ابن القارح تشعر القارئ برقاعة وفجور لا يدلان إلا على زندقة وفسق ، ونفس خبيثة لا تتوقر ، ولسان بذىء ينفث الفحش ، وفم يقء الدنس ... اقرأ هذه النبذة التى دسها ابن القارح من غير ما مناسبة اقتضتها فى رسالته :

« دفع رجل الى صديق له جارية وأودعها عنده وذهب فى سفره ، فقال بعد أيام لمن يأنس به وتسكن نفسه اليه : يا أخى ! ذهبت أمانات الناس ! أودعنى صديق لى جارية ، فى حسابه أنها بكر ، جربتها فاذا هى ثيب !! »

وهو قبل ذلك يشكو الى أبى العلاء انصرافه عن طلب العلم وانغماسه فى الأغراض البهيمية وأنه قبل أن يجىء الى مصر كان يذاكر خمسين ورقة كل يوم ، ولكن الأغراض البهيمية التى عرفها فى مصر وانغمس فيها ثمة صرفته عن جده ومثابرته فهو لا يذاكر إلا خمساً ومع ذاك تكل عيناه فى تحصيلها على قلتها . .

وحديث ابن القارح عن الزنادقة حديث الهازل غير الجاد . . حديث (المستملح) لما كان يصدر عنه هؤلاء الزنادقة من عتو وإلحاد والتماس الرفد والتوسل الى المنفعة بالتدين . . وقد اشتهر عن أبى العلاء نفسه أنه كان يتهم الأنبياء بمثل ما اتهم به ابن القارح الزنادقة من هذا الالتماس للرفد عن طريق الدين ، واللزوميات تفيض بشواهد كثيرة على ذلك

ونحن لا ندرى لم حشد ابن القارح هذا الحشد الكثير من الزنادقة فى رسالته ، وألم فيها بشر ما كان يصدر عنهم من تسفيه الأنبياء ، وسب الخلفاء ، والتبرم بالاسلام وبالمسلمين ؟ أليس كان يشير أبو العلاء الى كثير مثل هذا فى لزومياته ؟

اسمع الى هذا الرجل من يهود خيبر يعرض بموسى ويستهزئ بعمر حين أجلى أهل الذمة عن جزيرة العرب :

يصول أبو حفص علينا بدرة	رويدك إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط	لتشبع ، إن الزاد شىء محبب
فلو كان موسى صادقاً ماظهرتمو	علينا ، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقنا كم الى اليمن فاعرفوا	لنا رتبة البادى الذى هو أكذب
مشيتم على آثارنا فى طريقنا	وبغيتكم فى أن تسودوا وترهبوا

واسمع الى الذى يسب أبا بكر لشدة نالته منه فرحل الى بلاد الروم :

لحقت بأرض الروم غير مفكر	بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركونى من صبوح مدامة	فما حرم الله السلاف من الخمر
إذا أمرت تيم بن مرة فيكمو	فلا خير فى أرض الحجاز ولا مصر
فان يك اسلامى هو الحق والهدى	فانى قد خليتـه لأبى بكر ! !

وهكذا يحشد ابن القارح فى رسالتـه كل ذلك الفحش من أقوال الزنادقة وهو يعرف أن أبا العلاء قد قال مثل ذلك فى لزومياته ، فكأنه قصد الى أن يغنى على عوده ويضرب وراء هواه ، ... ولا ينفعه بعد ذلك سبه لهؤلاء الزنادقة ، هذا السب الذى كاد يكون رشقاً بالورد وتحية بالريحان وتزويراً على القارئين

* * *

وبعد ، فموضوعنا دانتى وأبو العلاء ، وهـذا حديث طويل عن ابن القارح .. ولكنه حديث عن السبب فى كتابة رسالة الغفران سنحتاج اليـه حين نتكلم عن السبب فى كتابة الكوميدية الالـهية

ولنختم هذا المقـال بذيل عن رسالة الغفران ليكون بين يدى القارئ خلاصة خاطفة لها :

دخل المعرى بصديقه ابن القارح جنة الفردوس ، فركب نجيبا يتنقل عليه فى آفاقها ، ثم طفق يطوف على أهلها ممن غفرت لهم خطاياهم فى الدار العاجلة ببيت شعر أو كلمة طيبة ، وترك المعرى لخياله عنانه الطويل فتفنن ما شاء فى وصف حور الجنـة وأنهارها وألوان نعيمها ... ويلقى ابن القارح تميم بن أبى الشاعر فيسأله عن أبيات كان قد قالها ، ثم يتشقق الحديث فيقص ابن القارح على تميم قصة بعثه وهول المحشر ثم حديثه مع رضوان وزفر ، ووروده على الحوض المورود ولقاءه فاطمة بنت النبى واستشفاعه بها وجذب ابراهيم بن النبى اياه فيكون داخل الجنة ... ويعود ابن القارح الى محاورة أهل الفردوس ممن غفر لهم ويطوف بحدائق الحور ثم ينفتل الى جنة العفاريت فيحدثه أهلها بأعجب الأحاديث ... ويشتاق الى الاطلاع على أهل الجحيم ، فيتحدث الى الخنساء (والعجيب وضعها فى النار مع حسن اسلامها ووضع أشد الكفار عتوا فى الجنة ! !) ويتحدث الى ابليس والى طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية ... ثم يعود الى الفردوس فيتحدث الى آدم ... ويخلص الى جنة الرُّجَّاز ... ويختم الكوميدية بوصف بارع لنعيم الخلد ....

« يتبع » د . غ

شعراء الموسم في الميزان
نقد وتحليل
للأديب عباس حسان خضر
— ٢ —

صرعى الأغراض

تناول شعراء الموسم مختلف الأغراض ، فلم يكن منها فى صميم ما يحس به جمهور الشعب احساساً عميقاً شاملاً غير هذه القصيدة ، وقصيدة « وطنى » للأستاذ محمد الهمياوى ، فلقد كانت هذه الصيحة التى أعلنها الأستاذ أحمد الزين حبيسة فى نفوس الكثيرين ، حتى لقد كانت زفرات الصعداء تقترن بتنفس الاعجاب ، ولقد تناول الأستاذ جزئيات الموضوع فى استقصاء وبيان لا يتأتيان لكاتب مطلق القلم من قيدى الوزن والقافية . استمع اليه يفند دعاوى العدل والمساواة والحضارة ، فى حجج بالغة :

لا يدعى العدل قوم فى عدالتهم صرعى الكفايات تشكو ظلم أهليها
ولا المساواة ، والأفهام لو وزنت مع الغباوة فيهم لا تساويها
ولا الحضارة من تجزى نوابغهم وحشية تسكن البيداء والتيها

والأستاذ الزين يأتى المعانى من أبوابها ، ويتناول مفاتيحها تناولاً حسناً ، ثم يجلوها فى ألفاظ عذبة مونقة ؛ يؤلف بين الشقائق ، ويجمع بين الأشباه والنظائر ، فلا تجد كلمة فى غير موضعها ، وإن ما يضطر اليه الشعراء من التقديم والتأخير وغيرهما لا تجد له أثراً فى شعره ، وهذه قصيدة (صرعى الأغراض) التى نحن بصددها ، اقرأ مطلعها :

هات المدام ولا تسمع لشانيها إن الزمان يصافى من يصافيها

هل تستطيع أن تلفظ كلمة وتقف ؟ لا ، لا بد أن يجرى البيت كله على لسانك حتى لتشعر كأنه ليس مؤلفاً من كلمات ينفصل بعضها عن بعض

وفى الأبيات التالية تصوير يدل على المهارة الشعرية :

ملء المناصب منهومون قد جعلوا من دونها سد ذى القرنين يحميها
على مناعة ذاك السد تنفذه عصابة تتواصى فى حواشيها
من كل أخرق تنسل الحظوظ به الى المراتب يسمو فى مراقيها
خابى القوى عبقرى الجهل يثقله عبء الرياسة إذ يدعوه داعيها

فتراه قد استوعب فى هذه القوالب الشعرية أكثر المعانى التى تتركب منها هذه الموصوفات ، وهذه غاية التصوير الشعرى ؛ وفى « عبقرى الجهل » ظرف كثير ، وقد أخذت هذه الكلمة سبيل الكلمات السائرة .

والقصيدة زاخرة بالمعانى ، منها ما هو عام يجول فى نفس الشاعر وفى نفوس غيره ، بيد أنه تفرد فى ترجمة المعنى وصوغه فى صور طريفة ، ومنها معان مبتكرة مضى اليها خياله سابقاً ، فمن النوع الأول قوله :

أرخصتمو غالى الأخلاق فى بلد لم تغل قيمته إلا بغاليها
يا رب نفس أضاء الطهر صفحتها أفسدتموها فزلت فى مهاويها
وكم قلوب كساها الحسن نضرته دنستموها فعاد الحسن تشويها
أغلقتمو سبل الأرزاق لم تدعوا لفاضل الخلق سعياً فى نواحيها
مدارس تغرس الأخلاق فى نشأ ومغلق الرزق بعد الغرس يذويها
لا تلح طالب رزق فى نقائصه إن الضرورات من أقوى دواعيها
ما أطهر الخلق المصرى لو طهرت تلك الرياسات من أهواء موحيها

ومن أبكار المعانى قوله فى الخمريات التى ابتدأ بها :

بكرا تدور على الندمان لابسة عقداً من الحبب الدرى زهيها
سرى شذاها فحيا أنفساً ضعفت من الهيام بها عن أن تحيها

فهذا « الزين » أول من يلبس الكأس عقداً ؛ والبيت الثانى اشتمل على معان لا يسلكها فى بيت واحد إلا شاعر فحل ، فالكأس ذات شذى يحيى الأنفس ، والأنفس تتأثر بالشذى حتى يستهلكها ، فما تعود قادرة على تحية الكأس الوافدة عليها يقدمها شذاها محيياً . وإليك هذين التشبيهين فى مواهب النوابغ :

إن المواهب سلم فى أعاديها جادوا بأعمارهم حتى لجاحدهم
وترسل النور فى أجفان شانيها كالشمس تقبس منها عين عابدها
نفوس أعدائها بالود صافيها والنفس ان ملئت بالود فاض على
كالسحب إذ ملئت بالغيث فاض على
جدب البلاد خلوف من هواميها

بعد أن تقرأ التشبيه الأول وتقضى حقه من الاعجاب قف هنيهة عند التشبيه الثانى ، وانظر قوة معانيه وكثرة أوجه الشبه فيه ، فالنفس المشبعة بالود كالسحب المشبعة بالغيث ، والنفوس

التى تجحدها كالأرض الجدب ، ومع هذا فالنفوس الخيرة تعلو علو السحب وتفيض على جاحديها بالود كما تفيض السحب على الجدب بالغيث

والزين أول من يطالب بدم قتلى المواهب فى قوله :

يا آخذين بقتل النفس قاتلها   قتلى المواهب لم يسمع لشاكيها
كم للنبوغ دماء بينكم سفكت   باسم المآرب لا اسم الله مجريها
هلا اقتصصتم لها من ظلم سافكها   وقل فيا جناه قتل جانيها
أولى الورى بقصاص منه ذو غرض   يخشى المواهب تخفيه فيخفيها

ويصور القاتل فى هذه الصورة النفسية المبدعة يخفى المواهب بقتلها حتى لا تغطى عليه وتخمله

وهذه القصيدة من الشعر الذى يقال فيه : الفاظه قوالب معانيه؛ فالمعنى يسابق اللفظ حتى يكاد يسبقه ، وأعتقد أن نجاحها — إذ كانت قصيدة الموسم غير منازعة — يرجع أكثره إلى شدة احساس الشاعر بمعانيها ، وصدورها عن شعوره العميق فى ثوب من البيان السليم من التكلف والتعقيد

ويظهر أن حسن القصيدة شغلنى عما عساه أن يكون فيها من المآخذ ؛ وان كان الانصاف قد اقتضانى أن أبدى — ما استطعت — بعض حسناتها ، فان الانصاف نفسه يقتضينى أن أنظر الى الكفة الثانية ..

يقول :

كم للنبوغ دماء بينكم سفكت   باسم المآرب لا اسم الله مجريها

يقال — مثلاً — : إن هـذا الاثم ارتكب باسم المصلحة العامة ، أى أن المصلحة العامة اتخذت اسماً فحسب لتبرير الفعل ، وتكون الحقيقة أن هناك باعثاً على الفعل غير الذى اتخذ اسماً ؛ فالتعبير الذى فى البيت وهو أن الدماء سفكت باسم المآرب يفهم أن المآرب اتخذت اسماً فقط ، مع أنه يريد أن المآرب هى الباعث الحقيقى على سفك دماء النبوغ

ويقول منددا باقامة الدور لحفظ الآثار :

ورافعين من البنيان شاهقه   فيه الذخائر قد صفت لرائيها

فبينما هو يغض من شأن الآثار ويقول عنها فى الأبيات التى قبل هذا البيت : خرق وخزفات .. إذ به يسميها ذخائر ! ولوصح عنده أنها ذخائر ونفائس لما كان هناك موضع للسخرية من الاهتمام بها ؛ على أننى لا أدرى لماذا يحمل الأستاذ الزين على الآثار هذه الحملة العنيفة ، هل العناية بها تمنع من تقدير ذوي المواهب؟

قد يقال : إن الشاعر لا يُنتقد فى رأيه ؛ ولو خالف به ما أجمع عليه الناس ، ما دام قد أخرج ما ذهب إليه مُخرَج لطف وإبداع . هذا صحيح ولكن هذه القصيدة تعد من الشعر الكتابى الذى يمحص فيه الرأى ، لذلك ولأن القصيدة ذات أثر فى نفوس الجمهور أحب أن أناقش الشاعر فى رأيه هذا ، فماذا لو أنه جُمع بين العناية بالبحث عن الآثار القديمة وبين تقدير ذوى المواهب ؟ على أن الأستاذ الزين نفسه يعمل فى البحث عن الآثار القديمة ، ويدأب فى دار الكتب على كشف كنوزها ، وينشئ لها من تحقيقه وتصحيحه ما يجدد باليها ويحفظ ، وهو الآن يعمل فى كتاب نهاية الأرب ، وهو أثر من الآثار العربية القديمة

أفيجب أن يكف الأستاذ عن عمله هذا حتى يلتفت الناس إلى تقدير المواهب والعناية بالنوابغ ؟ أم هو رأى شاعر كالزهرة ينبغى مسها برفق لأن العنف بها يودى بنضرتها ...

فى قريتى

يتحدث الأستاذ أحمد الكاشف فى هذه القصيدة عن حاله فى قريته وما يتصل به فى غيرها حديثاً تنفحك منه ريح الفطرة المحببة ، وتجد فيه روح الشعر الجاهلى المرسل على طبيعته لا يُعرِّج على عمق ولا يرهق حساً ؛ فالشاعر يسترسل فى بيان ما يشعر به استرسال شعوره بما يترجم عنه ، وقد جاءت القصيدة مطبقة لكل ما يحيط بشاعر معمَّر مثل الكاشف قد طبع على الشعر ، ومر به من الحوادث ما يستفيد منه شاعر متيقظ الذهن ، يقيم فى قرية يطل منها على الحياة العامة فى سائر البلاد ؛ فهو يَطلعُ علينا بقوله :

جمعت فى العيد حولى سائر الآل   وملتقى الآل حولى كل آمالى

ويمضى فى مثل هذه الديباجة العربية وهذا الأسلوب الجزل يعرض شأنه مع آله ، ويتمثل الأجيال المقبلة من النشء الذين يرعاهم ويعدهم للغد ، فى قوله :

كأننى - وهم فى الدار - مطلع   منهم على أمم شتى وأجيال
أعدهم لغـــد والمقبلين غدا   فى هذه الأرض أجنادى وأبطالى

ويصف حياته فى الريف واعتزاله فيه ، ثم يشكو من إهماله شكاية لا يلبث بعدها أن يعود إلى ذكر قناعته بما يزاوله فى الريف قائلاً :

إن لم يكن لى ديوان وحاشية   يوما فحسبى محاريثى وأنوالى

وهو صاحب الشعر السياسى ، فلا بد أن يفخر بما أبداه فى شعره من الآراء النافعة فى الحياة السياسية عاتباً على القوم إهمالهم له ، فيقول :

ألست ممن دعا الأحزاب فائتلفت ... إلى الذى فيه كانوا أمس عذالى
أرى المودة بالقنطار بينهمُ ... ولم أفز بينهم منها بمثقال

ثم يتكلم فى الحادثات الجارية الآن بين الجانبين : المصرى والبريطانى كلاما جامعاً ، على قصره ، ويصيب به الغرض ، فيقول :

ولم أزل بينهم للخصم متقيا ... دخائلاً هى فى ذهنى وفى بالى
أخشى على رسلهم نياته وهمُ ... منه أمام جلاميد وأدغال
وما تزال كما كانت سياسته ... يدور فيها بألوان وأشكال
وموضع الند أرجو عنده لهم ... لا موضع الصيد من أنياب رئبال

إلى أن يقول :

وكم يكون لهم من ضيقهم فرج ... كما تدافع أهوال بأهوال

ثم يعطف على إخوانه الشعراء فيتألم لعدم نيلهم مايستحقون ، ويخاطبهم بقوله :

وتملكون من الدنيا سرائرها ... ولا تحلون منها الموضع العالى
ومايتاح لكم فى الأرض متسع ... كما يتاح لعراف ودجال

ثم يدفع ما يقال من انقضاء الشعر بعد شوقى وحافظ بأن مصر ملأى بأشباهه من الشعراء ، وهو ، باعتزازه ، يرى فى أن هذا الكفاية ، إلى أن يقول فى ذلك :

إن لم ير الحى بعد الميْت منزلة ... منهم فلا خير فى المحزون والسالى

والقصيدة — كما ترى — ليس لها وحدة ، ولا تدور حول فكرة ؛ وإنما موضوعها شاعر يقول فيما يحس به من الحياة القروية ويعبر عما يخالجه نحو بعض الشؤون العامة ؛ وهى ممتعة مقنعة للنفس بما تتطلبه من الشعر ، وإن كان للناقد فيها مواقف للمؤاخذة

الشاعر قليل العناية بالملاءمة بين المعانى التى تناولها ، ففى القصيدة كثير من الأبيات التى يقول عن مثلها نقاد الأدب من القدماء : « أبناء علة » أى أنها متنافرة تنافر الاخوة غير الأشقاء مثل هذين البيتين :

لو كان للنبت احساس رأفت به ... وبت للنبت أيضاً غير أكال
كأنما قريتى ما دمت ساكنها ... ولاية وكأنى العمدة الوالى

وبينما تجده يمدح عشرة من يعاشرهم وما يلقاه فيها من عاطفة ، إذ بك تراه ينعى على قومه أنهم لا يساعدونه فى حمل أعبائه كما قام بأعبائهم ، وهوانه لديهم إلى أن يقول فى هذا :

ولو بليت بجبارين ما بلغوا ... مدى الأحبة من قهرى وإذلالى

فيبدو فى ذلك كأنه متناقض ؛ والواقع أنه يريد من الأولين الذين يبدى ارتياحه إلى عشرتهم — أبناء قريته ؛ أما الشكوى فمن عداهم من أبناء البلاد ، ولكنه لم يبين ، بل مزج الكلام وراح يتحدث عن الفريقين كأنهم فريق واحد !

قرأت هذا البيت :

أعدهم لغد والمقبلين غدا ... فى هذه الأرض أجنادى وأبطالى

فوقفت عند « أجنادى وأبطالى » ما شأنهم ؟ أيخبر بهم عن « المقبلين » إذن يجب أن تكون « المقبلون » ولكن فى الهامش أن الواو للعطف ، فيبقى « أجنادى وأبطالى » لا شأن لهم بما قبلهم ولا بما بعدهم

وهو يفسر هذا البيت :

ما أحسن الشمل أرعاه وأشهده ... لأمهات وآباء وأطفال

بما بعده :

فلا أرى فرقة فى الدهر قاطعة ... لطمئن وخفاق وجوال
ولا يصاب هديل فى أليفته ... ولا الغضنفر فى غيل وأشبال

وعلماء الأدب يعدون من عيوب المعانى ألا يستكمل التفسير أفراد المفسَّر ؛ نهو قد بين شمل الآباء والأطفال بقوله : « ولا الغضنفر فى غيل وأشبال » ولم يأت بذكر الأمهات ، وزاد الأليفة

ويقول إنه يعيش بالبقل والفاكهة ، ولا يأكل اللحم رأفة بالحيوان إلى أن يقول :

وقد أقاتل للحى المسالم من ... طير ومن حيوان كل قتال
لو كان للنبت احساس رأفت به ... وبت للنبت أيضاً غير أكال

فكيف يرأف بالحيوان ثم يقاتل حيواناً آخر ، لو قال : « أدافع » بدل « أقاتل » لكان مقبولا . أما قتال الحيوان فلا تقتضيه الرأفة به . ويقول إنه لو كان للنبت احساس لم يأكله أيضاً ! إنه اذن لن يجد شيئاً يعيش به ، وماذا يفعل لو علم أن العلم الحديث أثبت أن للنبت احساساً ؟

وقال :

ولم أجد من وضيع الذكر خامله ... ماساءنى من رفيع الذكر مختال

قابل بين وضيع الذكر ورفيعه ، وهذه مقابلة صحيحة . أما المختال فلا يقابل خامل الذكر ، انما يقابل الخامل النابه

(يتبع)

عباس حسان خضر

الكمال

للأستاذ فخرى أبو السعود

قد أسرَّت إلىَّ نفسىَ يوما   أنها لا تحب إلا الكمالا
لا تحب الأمور قد شابها النق   صُ وساوى الفحولَ فيها الكسالى
هتفت بى : إلامَ تطلب فى كلِّ   (م) ضئيل من الأمور مجالا ؟
قانعاً بالقليل قصداً وبالهيْ   نِ مقالا وبالتوسُّط حالا
قد أسغبتَ الفضولَ واللغو حتى   بتَّ عندى تُشابهُ الجهالا

***

رمتُ إرضاءها فآليت لا أر   ضى بغير الكمال يوما منالا
وحوانى جمعٌ فصممت لا أنـ   طق فيهم سوى الصحيح مقالا
ومضت ساعة فأخرى وما أسْتَغْ   تُ جوابا ولا استطبتُ سؤالا
صامتاً عابس الجبين ازدراءً   لحديثٍ بين الجماعة جالا
ضقتُ ذرعاً بالجدِّ منهم وبالهز   ل وضحْكٍ مستهجَن يتعالى
ضقت ذرعاً بهم وأنكرَ منِّى الـ   قومُ زهواً وجفوةً وملالا

***

وبدَتْ فرصةٌ تبشِّر بالخيـ   ر ويُحيى سنوحُها آمالا
فرصة جاد لى بها الدهر عفوا   رحت أسعى لها وأبغى احتيالا
فتذكرتُ قول نفسى ، فأعرض   تُ ازوراراً عن مطلبى واختيالا
قلتُ : ما يستحق منى عناءً   مِثْلُ هذا أو يستحق احتفالا
إن يَلُحْ مطلبٌ بمثلى خليقٌ   كنتُ فيه الهمام والفعَّالا

***

وتراءت بخاطرى فِكَراتٌ   وأحاسيسُ كلَّ يوم توالى
كلما قلت : سوف أنظم من ها   تيك سحراً من البيان حلالا
حقَّرتْها نفسى وقالتْ : هراءٌ   ليس يُلقى إليه ذو اللُّب بالا
تحتفى اليومَ ناظما لِتَمَانَ   فى غدٍ سوف تجتويها ابتذالا
فدَعِ القولَ أو يَعِنَّ عظيمٌ   وصُنِ الشعرَ خيفةً أن يُذالا
فهجرتُ اليراع دهراً ولم أُلْ   فِ جديداً مستأهلا أن يقالا

***

صاحِ ذا عالمُ النقائص مَن را   مَ كمالاً به أراد المحالا
من أراد الكمال فى كل قصد   حقَّر السعى واستخسَّ النضالا
من بغى المنتهى أقام فلم يَبْـ   رَحْ وعافَ المقالَ والأفعالا

فخرى أبو السعود

أبو الهول

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

أنختَ فوق الدهر بالكلكل   وكُنتَ مثل الواعظ المُرْسَلِ
عند فلاة قلَّ قُطَّانها   هل باختيار كنتَ فى معزلِ
مضى الأُلى شادوك فى مجدهم   كأنه منك لدى موئل
فهل مللتَ العيشَ من بعدهم   كأنما جُلِّلْتَ بالمُثقِلِ (١)
ثقل من الدهر تحمَّلته   لو حل بالأطواد لم تحمل
فهل يَدِرُّ العيش من بعدهم   أم ما ضُرُوع الدهر بالحُفَّل (٢)
وأنتَ مثل الخان فى لبثه   ونحن مثل الراكب المُعْجَل (٣)
غدا ترى عيناك من بَعدنا   غير حُلول الحى والمنزل
كم أمة من بعدها أمة   قد رحلت عنك ولم ترحل
فأنت سِفْرُ الدهر خطَّت به   يداه آى المُحْكَم المُنْزَل
فاتل لنا من آية آية   لعلنا نجتنبُ ما يبتلى (٤)
كم وعظ الدهر فلم نزْدَجِرْ   وكم سما الناس ولم نعتل
نعاف مستطرف ما يُرْتجى   كأننا فى العيش لم نُجْبَل
قيدنا العجز ونرجو عُلَى   يسمو الذى فى الطير لم يُكْبل

(١) جلله وتجلله : علاه ، والأطواد : الجبال
(٢) الضروع : الثدى ، والمراد بدر الدهر بفتح الدال خيره ، أى هل سيعود لمصر خيرها ومجدها الماضى
(٣) الخان : المراد به النزل والفندق
(٤) أى أعطنا مما رأيت من تجارب الدهر كى نتجنب الزلل

فيا مِثال الدهر يا رمزه   كم صنم فى القلب لم يَبطُلِ (١)
كأن روح الدهر فى جسمه   إن ترَهُ من نحوه تمثُلِ
تحسبه من هيبة عاقلا   من حسب المرهوب لم يعقِلِ (٢)
كأنما فى طىّ ألحاظه   ذكرى لعهد الزمن الأول
كأنه فى صمته حارس   يحرس باب القَدَر المقفَل
يا عجبا أبصرتَ ما قد مضى   ونظراتٌ منك لم تَقتُلِ (٣)
أبصرتَ أكل الدهر أبناءهُ   ألم تَرُعْ من ذلك الآكل
بينكما نجوى على صمته   وصمتة فى فيك كالمِقوَلِ
مرت بك الأيام مخشية   كأنها مرت على هيكل (٤)
فابعث لنا من عزمها عُدَّةً   فلو سألتَ الدهر لم يبخل
ولو نهيتَ الدهر لم يَعتَدِ   ولو زجرتَ الدهر لم يُقبِلِ
والدهر كم تَسحرُ أحداثُهُ   لب غضيض اللب والمِفصل
أى حكيم قد رأى ما رأت   عيناك فى الدهر ولم يذهل
يا ناظرا ينظر هذا الورى   نظرة طرف الناظر المُعضِل
انظر إلى الأقدار فى غيبها   واذكر مآل العيش فى المُقبِل
أغابر الأيام فى صرفها   كمُضمَرٍ فى الغيب مُستقبل
أمالكٌ عُوجِلَ عن مُلكه   كذى علاء بَعْدُ لم ينزل
وللناس حَلْىُ القاهر المُعتلى   يألم نار الحاذق الصيقل
يصوغهم كل غَلوبٍ على   سنة مُلكِ الرمح والمنصل
كم عَبْرةٍ للناس أبصرتها   وعبرةٍ للهاطل المُسبِلِ
فهل دموع النحس تحيى الورى   مثل عقيب المطر المرسل
أراك لا ترثى لما نابهم   يا ليتنى مثلك لم أحفل
ومقلة تخبر ألحاظها   أنّ عيون الدهر لم تُسمل (٥)
والدهر وهو الساهر المعتدى   يُغضى وعين لك لم تغفل
ورب لحظ منك قد رِشْتَهُ   فى قلب هذا الدهر كالموغل (٦)

(١) فى البيت إشارة إلى قول المعرى :
والقلب من أهوائه عابد   ما يعبد الكافر من بده
أى وثنه وصنمه ، فعبادة الأوثان إذن لا تزال قائمة فى القلوب
(٢) الخوف من إنسان يجعل الخائف يكبر عقله
(٣) لم تقتل من هول ما شاهدت عينه
(٤) أى تمر بك خاشعه ولو أنها مخشية من الناس
(٥) تسمل : أى تفقأ
(٦) راش السهم هيأه : أى كأن ألحاظك سهام تتغلغل فى قلب الدهر

فابحث خباياه وأحناءه   واكشف لنا عن ذلك الغيطل (١)
كأن روح الدهر تبغى به   وَكْنًا لها أُحْكِمَ كالمعقل (٢)
تحسبه لو جئته ناشداً   معنى حياة الناس لم يجهل
يا من سؤال العيش فى صمته   اسأل ومن لم يَدْرِه فاقتُلِ (٣)
كم امتطى الأيامَ تجرى به   كأنه والخلد فى منزل
كم عَبَّ لج الدهر ثم انثنى   إلا بقايا الماء فى الجندل (٤)
كأنه منتظرٌ مَوْعِدا   حِيِّنَ كى ينطق بالمِقوَل (٥)
لوفاه يوماً ذاكراً سره   لم يعجب الرائى ولم يَعْجَل
أو أنه المسحور فى صمته   قد كان يمشى مِشيَةَ المُشبِل (٦)
يخاف صرف الدهر من فتكه   وعلمه بالحادث المُقبِل
فذاده بالسحر عن نطقه   حتى تناسى عيشه المُنجَلِي

عبد الرحمن شكرى

(١) الغيطل هنا كالغيطول الظلمة المتراكمة
(٢) الوكن : الوكر
(٣) فى البيت إشارة إلى أسطورة قديمة تقول إن أبا الهول كان إذا مر به إنسان سأله فى معضلات الحياة ؛ فاذا لم يجب قتله
(٤) الجندل : الصخر ، أى كأن الدهر بحر وأبا الهول الصخر على شاطئه يصد أمواجه
(٥) أى كأن سكوته سكوت المتأهب للقول فى حينه
(٦) المشبل : أبو الأشبال ، أى كأن أبا الهول قد كان حيا يمشى كالأسد أبى الأشبال فسحره الدهر خوفاً منه

العمر والأمانى

بقلم الشاعر عثمان حلمى

مُنًى تناثرنَ حولَ النفسِ ذابلةً   كما تناثرَ حولَ الدوحةِ الورق
تأبى التجاريبُ إلا أن تودِّعها   بين الطِّماحِ وبين اليأس تصطفق
والعمرُ يجرى كما يجرى السحاب فما   يعودُ ما جدَّ منه وهو يستبق
وإن أعيدَ فلا حمدٌ لعودته   هى الليالى غضابٌ أو بها خرَق
وكالأعاصير فى قلبى مضاضتها   أو كالجحيم وفيها القلبُ يحترق !
نظرتُ للسالف الماضى فوا جزعاً   إذا تلاقت به فى المقبل الطرُق
ونظرتى لحياتى وهى مقبلة   اليوم غيَّرها سارٍ بها نَزِق

القصص

البدوى رحاب

للأستاذ ابراهيم بك جلال

وكيل محكمة الزقازيق الأهلية

كان فى أقصى الصعيد نجع صغير قريب من الجبل يسكنه جماعة من فقراء الفلاحين وبينهم بعض الأعراب الذين سكنوا القرى المصرية واعتادوا حياة الريف والاستقرار ، ولكن لم تتبدل فيهم غرائز البدو وعاداتهم الموروثة . وكان فى النجع بدوى شيخ قد ناهز الثمانين ، أسمر البشرة ، حديد البصر ، اسمه « رحاب » ، إذا مشى خلف جماله أطرق برأسه غير ملتفت إلى أحد من الذين يحيطون به معجبين باستقامة عوده ونشاط بدنه ، على ما بدا من شيخوخته ، فلا يفارق عصاه الغليظة يبسطها على عاتقه ويلف عليها ساعديه ، وهو حافى القدمين قد اشتمل بعباءة من وبر الجمال ، واعتاد أن يحمل خيوطا كثيرة من ذلك الوبر الذى كان يغزله

وكان له ولد يدعى « دياب » فى الثلاثين من عمره قد أصبح مضرب المثل فى حسن الفتوة وكمال التكوين والقامة المديدة ؛ له عينا صقر وشارب مفتول ، ولكنه كثير الاغتراب والأسفار ، يطوى الفيافى والبيد سعياً على قدميه ، ويجوب أقاليم الصعيد من أقصاها إلى أقصاها يبيع للفلاحين النوق والجمال ، ثم يعود إلى مضرب أبيه مغنم الكيس بالمال . أما أبوه الشيخ رحاب فانه لا يغادر الخباء إلا إذا سرحت جماله فى الأراضى البور المترامية خلف النجع وعلى ضفاف النيل ، فيمشى خلفها حتى إذا بلغ رابية بأقصى الساحل جلس عندها وتناول مغزله يديره طول يومه ، فاذا جاع تناول قبضة من التمر اليابس ، ثم اشتمل بعباءته ونام بعين الساهر اليقظ . وكانت له فتاة صبوحة الوجه ، مليحة التكوين ، تخطر فى مشيتها فيفتتن الناظر بسحر أحداقها المتقدة حسناً ورقة ، وكانت الفتاة ، واسمها « سلمى » تزين صدرها بألوان من العقود ، وتطوق خصرها بنطاق من الحرير الأحمر ، ولها فى الخباء صندوق أحمر عليه تصاوير وألوان مما يباع لأهل القرى ، يتدلى مفتاحه من غدائرها ، وقد جمعت فيه ثيابها وأقراطها وأساورها ، وكل ما حرصت على جمعه من ألوان الزينة التى يحبها بنات العرب

وكان بيت هذه الأسرة فى أقصى النجع قد قام من أوبار الجمال ، فيه فراش للوالد الشيخ وآخر بجانبه لزوجته جازية ؛ أما سلمى فكان فراشها بمعزل عن والديها . وكان فى ناحية من الخباء جرن كبير من الحديد يؤدى عمل الرحى ، فيدقون فيه الشعير ، وله يد كبيرة غليظة لا تقل زنتها عن نصف قنطار يعجز الرجل من أهل المدن أن يحركها إلا بكلتا يديه ، ولكن سلمى كانت

تبدّلت نظراتى فى الحياة كما ... تبدّل اللونُ لما طاشت الحدق
مالى وما للمنى ما جدّ بى زمنٌ ... إلا وطاحَ بنفسى عاصفٌ حَنِق
لونُ الحياةِ كلونِ النفس تبصره ... بما طويت فلا مينٌ ولا ملق
فى غاية النفس والدنيا وسرّهما ... تحيَّر الخلق فى سرٍ له خُلقوا
غادٍ على الأرض فيها رائح جَزِعٌ
ذو الصبر يطوى ويطوى الجازع الحمق
وكلُّنا فى الليالى صاعدٌ جبلا ... تَزِلُّ أقدامُنا عنه وتنزلق
متى بَصُرْتَ بآلام الحياة ضحًى ... أيقنتَ أىّ رجاء ضمّه الغسق
والحبُّ والبغض إن جدّا زوالهما ... حقٌ وأىُّ جميع ليس يفترق !
وأدمعٌ لىَ حيرى فى محاجرها ... ولى فؤادٌ ولكن بالأسى خَفِق
فكنتُ أحسبُ أحلامى محققةً ... ولا محالة حتى لاح لى الشفق
آمنتُ أنّ وجودى كلُّه خُدَعٌ ... وأنّ نفسىَ تحكى كلَّ من سبقوا

(الاسكندرية) عثمان حلمى

تدق بها حب الشعير كما يستعمل نساء المدن الهاون النحاسى سهولة واعتيادا بغير عناء أو مشقة ، وكذلك كانت جازية أمها . والعجيب أن الشيخ الفانى كان يتناول ذلك القضيب باحدى يديه كما يفعل بعصاه يحركه ويدق به ، وكان عندهم عنزات لطاف يطلقونها بالنهار فى أطراف المزارع ، وتمشى الأم جازية تحرسها من بعيد فتجمع لها بعض الحشائش الجافة ، فاذا مر بها رجل من أهل القرى أسبلت نقابها الأحمر وتوارت حتى ينصرف الرجل وما كانت تكف هى الأخرى عن الغزل طول يومها

ولم يبق بالخباء إلا الفتاة سلمى الكاعب اللعوب ، تراها تغزل أحياناً وحيناً تطبخ الدشيش وتسقيه من لبن النوق ، ثم تملأ منه القدر الكبيرة وتجلس بعد ذلك ترقب الطريق كأنها على موعد مع أحد الناس

وكان بأحدى القرى القريبة من النجع فتى من سادات الأسر الكريمة بصعيد مصر ، مات أبوه عن ضيعة عامرة بالانعام وأنواع الدواب ، وبها أهراء حافلة بالغلال والأقطان ، واستقر الفتى حسان فى ضيعة أبيه مجداً دائباً فى الزرع والانبات حريصاً على مرضاة الفلاحين ، وقد اتخذ جناحاً من دار أبيه لسكناه مع أمه الأرمل المريضة ، وكف عن حياة السرف وكثرة الانفاق على الولائم والأضياف . وكانت له فرس شقراء من عتاق الخيل يركبها ويطوف بها بين المزارع فى كل صباح باكر وكل عشى

ومر يوماً بخباء رحاب فلمح سلمى تحلب عنزاتها عند باب الحظيرة ، فترنح الفتى على سرج فرسه من روعة حسنها وقوة فتنتها وجمال جيدها ، والتقت عيناها لمحة قصيرة ثم أرخت قناعها وولت على استحياء ، وأكثر حسان من الطواف بخدرها كل غداة ، فكان يجدها منفردة عن أبويها ، وشجعه على التحديق فيها صمتها وجلوسها كل يوم عند كثيب خلف الخباء كأنها ترقب حضوره

وخرج حسان يطوف المزارع كعادته فى يوم شديد القيظ ، فساقته فرسه إلى باب الخباء ، فنادى أهل الدار يلتمس ماء أو جرعة من لبن الابل يتعلل بها ، وقابلته الأم عند الباب وقد أرخت قناعها الأحمر وسألته عن حاجته ، فلما طلب قدحاً من اللبن نادت ابنتها سلمى ، فجاءت تتعثر بأذيالها وهى حاسرة الوجه تبهر الناظر بحسنها وملاحة قدها ، ومدت اليه يمينها بالقدح فترجل حسان لدى الباب وقد سنحت له الفرصة فرآها عن قرب ولمس كفها ، وطالع فى غرتها آية الحسن الذى لم ير مثيلاً له بين بنات القرى ولا فى سائر البنادر التى زارها ، وابتسمت سلمى من رؤية محبها وقد أذهلته الفتنة وشغفه حبها وملأت ناظريها منه ، وكان فتى حسن الهيئة والثياب ، ثم ارتدت الى البيت وتوارت عن ناظريه

وأراد حسان ألا تضيع الفرصة ، فسأل الأم أن كان لديهم بعض من صغار الخراف ليشتريها ويحملها إلى المزرعة بين دوابه وأغنامه ، فأنعمت الأم وغابت عنه قليلاً ، ثم عادت تسوق بين يديها حملين صغيرين ، وجاءت على أعقابها سلمى تسوق حملين آخرين وساومهما حسان ونقدهما ثمناً معجلاً فى الخراف الأربعة ، ثم بدت له مشكلة حمل الخراف إلى قريته ، فهونت عليه جازية الأم وساقت بين يديها الخراف تساعدها سلمى ومشى حسان بين المرأتين يحدثهما طول الطريق ويختلس النظر إلى سلمى التى ما كانت تضن عليه بعطفها وابتسامها ، وبلغوا المزرعة فأدخل الخراف فى الحظيرة ثم قدم لجازية وسلمى طعاماً شهياً من موائد أهل المدن بين دجاج وشرائح من لحم مشوى وخضر مطبوخة ، وصحفة كبيرة من الحلوى يبهر بها أبصار ضيوفه ، ثم حمل إليهما النقل والفاكهة ولم يدع مزيداً من واسع الكرم وطرائف النعم .

وخلا حسان بفاتنته سلمى فى ساعة شغلت فيها جازية بالحديث مع أمه العجوز المريضة بأعلى حجرات الدار ، واشتفى المجاز فى خلوتهما ، وخطبها حسان لنفسه وحمل اليها من خزانته صرة من الحرير الأبيض فيها مائة جنيه من الذهب صداقاً معجلاً ليستحل بذلك عناقها ، ولكن سلمى نأت بجانبها أسى وأسفاً ، وأطلعته على همها الدفين ، فان أباها قد عقد العزم على تزويجها من ابن أخيه وهو كهل من قبيلتها ، له زوجتان وبنون وبنات ، وهو فوق ذلك قد جاوز سن الشباب ، فظ غليظ القلب ، رقيق الحال ، ومن أجل ذلك كله قد تنكد عيشها ، لأن أباها وأخاها « دياب » كلاهما ملح فى تزويجها من ذلك الرجل البغيض ، وقد أنذراها بالموت إن هى ترددت فى

القبول والرضى ، وبكت سلمى وغمرت وجهها في صدر محبها ، وضمها حسان وقال لها إني أشهد الله أنك ستكونين أهلي وهذا صداقك بين يديك ، وليقض الله فينا بمشيئته ، واستسلمت له الفتاة وتعاهدا أن يدعو في الصباح مأذون القرية ومعه شاهدان ليعقد عليها بغير علم من أبيها أو أمها

وما أشرق الصبح حتى هبط حسان إلى فرسه فامتطاها وانطلق بين أنفاس الربى يطير بجناحي شوق

وانقضت أشهر والحبيبان يلتقيان بالخباء في غفلة من رحاب وزوجه ، وكثر سروح سلمى تمشي الى زوجها في دجى الليل بعد أن ينام أبواها حتى ظهر الحمل وتحرك الجنين ولم يبق على الوضع إلا بقية من الشهر الأخير ، فرفع رحاب حاجبيه يوماً بكلتا يديه وظهر له ما كان مستوراً عنه من أمر سلمى ؛ فناداها : أنى لك هذا وما كنت بغياً ؟ وطار شرر الغضب والوعيد من مقلة الشيخ ، ففرت زوجته جازية بين الربى والآكام ، واستسلمت الفتاة المسكينة ، فقال أبوها خبريني عن هذا الذي في أحشائك من أبوه ، فقالت معاذ الله ما أثمت والله يا أبت ، ولكن بكتاب الله وسنة نبيه ، فقال هذا غاية ما بلغ اليه فجورك ، إن اليوم هو آخر أيامك من الدنيا ، فمن شريكك في الأثم ؟ من هو ذلك الذي انتهك حرمتي وفضح ربة الخباء ؟ لعله الفتى الذي يجوب الربى بفرسه الشقراء كل يوم ! لقد أغدق عليك من خيره يوم ابتاع منك الخراف . فصاحت سلمى باكية وقالت : بل هو سيد كريم قد مهرني مائة جنيه من خالص الذهب وأغدق علي ألواناً من الثياب والعقود والجوهر الكريم ، ودخلت الخباء ثم عادت تحمل بيدها صرة من الحرير الأبيض بها صداقها وقالت هذا هو المهر الذي استحل به عناق ، فصاح بها أبوها سأرد اليه هـذا الذهب وأنال به مهراً أغلى وأشد خطراً يجرى من دمه فأغسل به باب هـذا الخدر . فصاحت سلمى : يا أبت إنني وحدي الأثيمة فاقتص مني دونه ودعه بالله وشأنه فانه الوحيـد المرجى لأمه المسكينة . لقد مات أبوه رمياً بالرصاص في ظروف محزنة ، ولم يبق من أسرته إلا هو . دعه يا أبت يعش ويستوف نصيباً من نعمة الدنيا ، فصاح بها أبوها أن احملي الى قضيب الجرن ، فنكست رأسها وجرت مدامعها وقد لاح لها ملك الموت ، وأضجعها أبوها فاستكانت له ، فهوى بالقضيب يقصم ظهرها ويفري حشاها صدعا شـديداً وضرباً لا رحمة فيه ولا هوادة ، وتراخت يداها وأخذتها غشية الموت ، فناولها جرة المـاء وصاح بها لتحملها إلى غدير الماء ، وتملأها غلواً في قتلها وإرهاق نزعة الموت الأخيرة فيها ، ودفعها بيده وهي تحبو إلى الغدير حبواً حيث فاضت روحها ، فركلها أبوها الوحش بقدمه فحملها المـاء إلى الشط . وصاح الناس قتيل بالشط ! فأقبل العمدة وجنوده وعرفوها سلمى ابنة رحاب ؛ واحتشد الناس في أقصى المزارع حول جسد مسجى في إزار من الحرير الأبيض يبين منـه وجه حسان وقد مزقت أحشاءه قذائف الرصاص ، وتدلى من إزاره صرة من الحرير الأبيض بها مائة جنيـه من الذهب الأصفر ، حولها مائة قطرة من الدم الأحمر الزكي الشهيد !

ابراهيم جلال

مأساة من سوفوكليس

٢ ـ أنتيجونى

للأستاذ دريني خشبة

— ٤ —

« يدخل أحد الحراس منزعا »

— « مولاى ! مولاى ! أ... أ... أنفاسى تتقطع يا مولاى ! أفكارى مشتتة ! لقد أوشكت ألا أحمل النبأ العظيم ! يا للهول ، يا للهول ! »

— « تكلم أيها الحارس ، ما وراءك ! تكلم ! ... ماذا تخشى ؟ »

— « الجثة يا مولاى ! لقد هيل عليها الثرى ... و ... دُفِنَت ! وأدّيت لها كل شعائر الآلهة ! أما من صنع هذا .. ف ... لا ندرى ... لقد لاذ بالفرار ! فر دون أن يراه أحد ! »

— « ها ... !! الجسور الذى صنع كل هذا ! ... »

— « لا أدرى ! إنه لم يترك وراءه أثراً يعرف به ! ونحن أيضاً لم نعرف ما تم حتى أيقظتنا آراد الصباح المنبعثة من أعين الشرق ! لقد فزع الحراس ، واقترعوا على من يبلغ مولاى ! فيا لشقوتى ويا لتعاستى ! لقد وقعت القرعة على ... وهل أشأم من حامل أخبار الشؤم ! ؟ » .

الخورس : « مولاى ! إنها قوة سماوية مقدسة لا بد ! هى التى صنعت كل هذا ! »

الملك : « أية قوة سماوية يا أحيمق ؟ ! أصمت ! أية آلهة تزعم أنها توقر النذل الخائن الجبان ! إنك تضرم غضبى وتؤجج لظى السخط فى أعماق ! ويلكم أيها الحراس الأنجاس ! بل أنا أعرف من أين وصلتكم الرّشى فغضضتم الطرف عن إجرام المجرمين ! النقود ! دائماً النقود ...! تعاويذ السحر ، والرقى التى تذهب بالألباب ! ليس مثلها فى إفساد ضمائر الأمم ، وتدنيس كرامات الشعوب ! ولكن لا ... ! فاما تأتونى بالمجرمين مصفدين فى الأغلال ، وإلا فالشنق أيسر عقوبة تستأهلونها ! أيها اللؤماء ! يا عبدة الذهب »

— « إذن ! ... أ ... أيسمح لى مولاى بكلمة ؟ أم أنقلب على وجهى ؟ »

— « بل كلمات ... تكلم ! ... إضرم نيران السخط عسى أن تحرقك ؟ »

— « أنا على الأقل ... لست صاحب ذاك الوزر ! »

— « ها ... ها ها ... ؟ كل ما فيك لسان ليس يفترعن هراء ! المجرمين ... وإلا ... فرؤوسكم أجمعين ! ... أغرب ! »

« يخرجون تباعاً ما عدا الخورس »

— ٥ —

وما يكاد المنشدون يفرغون من هزج حلو النغم ، ضافى الحكمة ، حتى يشهد رئيسهم أحد الحراس مقبلاً وبين يديه الفتاة الجريئة التاعسة أنتيجونى يسوقها سوقاً

« يدخلان »

— « الفتاة التى صنعت كل شىء ! لقد ضبطناها تدفنه ! أين الملك ؟ »

— « ها هو ذا قادما للقائك أيها الحارس ، فحدثه بكل شىء »

« يدخل الملك »

— « مولاى ! ها هى ذى ! لقد ضبطناها تحثو التراب على جثمان القتيل ! ما أحسبها تنكر ، لأن الانكار لن يفيدها من الحق شيئاً ! حمداً للآلهة ! لقد أنقذتنا بالتوفيق من موت كاد يتخطفنا ! سلها يا مولاى فأكبر ظنى أنها ستعترف ! »

— « هذه الفتاة ! أين وجدتها إذن ؟ »

— « وجدتها تدفن الأمير قلت لك ! »

— « ما أحسبك إلا مأفوناً ! »

— « لقد وجدتها تدفن القتيل الذى أنذرت ألا يدفن ! ماذا تريد منى أن أكون أصرح من هذا ؟ »

— « وكيف إذن كشفتم هذا الأمر ؟ »

— « لقد كنا يا مولاى نجلس (فوق ريح) القتيل حتى لا يصدم أنوفنا نتنه ، ولا يضرنا جيفه ، وفجأة ، حين أشرقت ذكاء وغمرت بسناها البطاح ، هبت زوبعة قوية حجبت الشمس بكثرة ما أثارت من تراب ورمال ! وخفنا على أبصارنا أن تصرها الريح العاصف فأغلقناها ، وما كادت تهدأ العاصفة ويصفو الجو

حتى رأينا هذه الفتاة تبكي القتيل وتسقيه أحر عبراتها ، ثم حثت فوقه التراب وصبت عليه ثلاثاً من جرار الخمر المقدسـة ، سلها يا مولاى فانها اعترفت بكل شيء ، وستعترف لك بكل شيء ! »

— « أنت أيتها الفتاة التى تبحث بعينيها تراب الأرض !! أتقرين بما تَقَوَّل عليك الحرس أم تنكرينه ؟ »

— « أنا ! . . . ها ها ! ! أنا لست أنكر مما ذكر حرفاً واحداً ! ! لقد نذرت ذلك وأنفذت ما نذرت ! »

— « إذن ... انطلق أنت أيها الحارس ... فلقد نجوت ... أما أنت أيتها الفتاة . . . أما علمت بما صدرت عنه إرادتنا ؟ ألم تكونى تعرفين أن ما صنعت محذور منه منهى عنه ؟ »

— « كنت أعلم ذلك جميعه ! »

— « وكيف تجاسرت إذن على خرق القانون إلى هذا الحد ؟ »

— « إنه قانون لم يتنزل علىَّ من السماء ، ولم تأمر به ربة العدالة ! إن هى إلا قوانينكم أنتم ، ولكن للآلهة قوانينها كذلك ، وقد فرضتها منـذ الأزل على بنى الانسان ، وأنى لبنى الموتى أن تضرب بعرض الأفق شرائع السماء ! أينا أخطأ أيهذا الرجل ؟ أنا التى عصيت قوانينكم الظالمة ، أم أنتم الذين ثرتم على قوانين آلهتكم ؟ ألا مرحباً بالموت يريحنى مما كنت أغص به من آلام ! أيترك أخى من غير قبر يستره ويردنى تهديدكم بالاعدام عن دفنه ؟ ألا إن هـذا هو الاعدام ! ألا إن كنت فى نظرك مجنونة ، فانى لكذلك فى نظر مجنون ! . . . »

رئيس المنشـدين : « يا للجرأة ! إن الفتاة لا تبالى صاحب تاج طيبة ! إن الردى الذى يرقص أمام عينين لا يفل من عزيمتها »

الملك : « إى وحق السماء ! ولكن سرعان ما تذوب هذه الروح المتمردة حين تلقى فى سـعير العذاب ! خيلاء ! ها ! شيء لا يحتمل من مجرم ! إنها داست القانون ولم يكن بحسبها ذلك ، بل هى تضاعف أوزارها بالقحة ! إنها تستهزئ بنا كأنها صاحبة الأمر والنهى فينا ! من أنا إذن ! لعلها تحسب أنها بنجوة من العقاب لأنها ابنة أختى ! ها . . . ولكن . . . لا . . . . فوحق السماء لو أنها أقرب الناس إلى لما أفلتت من الجزاء الصارم ... ولكن . . . أين شريكتها فى هـذا الوزر ؟ أختها ! إنهما كانتا تتناجيان فى هذا القصر ... إلى بها هى الأخرى ... إنها أخبث منها ! ... »

أنتيجونى : « على رسلك أيها الملك ! أتبتغى شـفاء لحردك أكثر من قتلى ! ألا مرحباً بالموت ! »

الملك : « بحسبك ! هذا شأنى ! سينهى الموت كل شيء ! »

— « وفيم الابطاء إذن ! إنك لا تخيفنى بتهديداتك ، فلقد نلت مشتهاى بدفنى أخى ، وأى فخار أبعد من هذا ؛ إن هؤلاء جميعاً شهودى ، فسلهم يجيبوك ! حل عقال ألسنتهم ... كلهم ! »

— « ليس فى طيبة فرد يرى القضية بعينيك ! »

— « بل هم يرونها كما أرى ، ولكن جبروت السلطان يلجم أفواههم ! »

— « وهلا تستحين من تحديك مدينة بأسرها ؟ »

— « ومِمَّ أستحى ؟ ألأنى أخته ، ذلك الذى وفيت له ؟ »

— « أو لم يكن إتيوكليز أخاك كذلك ؟ »

— « أخى وشقيقى من أبى وأمى ! »

— « لم يكن من الوفاء له إذن أن تفعلى ما فعلت ! »

— « إنه وقـد مات — لا يؤمن بما تقول ! على أن الذى دفنته هو أخوه أيضاً ولم يكن عبداً مرة ما ! »

— « لكنه حارب وطنه وأراد إذلال بلاده ! »

— « لا يعرف الموت هذه الفروق الدنيا ! »

— « ليس الخير والشر سواء كما تعلمين ! »

— « قد يستويان فى الدار الآخرة ، من يدرى ؟ »

— « العدو مكروه أبداً حتى فى الموت ! »

— « ومن أين لقلبى بكراهية أخى ! إنى أحبه ! »

— « ها ... ستحبينه كثيراً بعد قتلك ! أبداً لن تسيطر علىَّ فتاة مثلك ! »

« تدخل إسمنيه »

(لها بقية) دريني خشبة

البريد الأدبي

كتاب جليل عن مستقبل الديموقراطية

تثير نظم الدولة والحكم اليوم كثيراً من الاهتمام، ويتساءل الساسة والمفكرون في مختلف أنحاء العالم، أيكون المستقبل للديموقراطية أم يكون لتلك النظم الجديدة الطاغية التي تستتر وراء فكرة الدولة وتقضي على كل الحريات الدستورية؟ وقد صدر أخيراً بالفرنسية في هذا الموضوع كتاب جليل الشأن عنوانه: «الفوضى أو السيادة المطلقة، أزمة الديموقراطية، وحلها» « Anarchie ou Hierarchie. La Crise de La Démocratie » بقلم السنيور دي مادارياجا سفير اسبانيا في باريس ومندوبها لدى عصبة الأمم، وهي خلاصة المحاضرات التي ألقاها في معهد الدراسات الخاصة بالثورة الفرنسية بجامعة السوربون منذ سنة ١٨٣٣

والسنيور مادارياجا من أعظم ساسة أوربا المعاصرين، ومن أعظم الكتاب الدوليين، وهو ديموقراطي بالفطرة لا يدخر وسعاً في الذود عن الديموقراطية بقلمه ولسانه؛ وهو يقول لنا في كتابه إنه لما رأى القوى الخصيمة تثب وتناوىء الحريات الديموقراطية، ورأى الحرية نفسها تضعف وتتضاءل، رأى أن يبحث ما إذا كان من المستطاع أن ننظم ديموقراطية الغد وننقذها

ويرى السنيور مادارياجا أن فهم الحرية قد تطور جداً عما كان عليه أيام روسو ومونتسكيو، وأن الحرية قد غدت بالنسبة لبعض الأفراد عبئاً لا يراد حمله، وأن المساواة غدت في نضال مستمر مع أنواع الايثار التي تقوم على النظام الطبيعي، وأن الديموقراطية القائمة على سيادة الشعب غدت من التعقيد بحيث تخرج عن طاقة الفرد وسلطانه

ويقول لنا إن عوامل التأثير والتعقيد في الديموقراطية المعاصرة ترجع إلى الرأسمالية التي أصبحت كابوساً على العمل، والمالية التي تسخر كل القوى لصالحها؛ وقد غدت القوى المنتجة في الأمة معتركاً من النضال المستمر؛ وأضحت الفكرة القومية في نضال مستمر مع النزعة الدولية؛ بيد أن ذلك كله لا يعني أنه يجب على الأمم أن تترك قوى الحرية السياسية التي تغذيها المبادىء الديموقراطية، بل يجب عليها بالعكس أن تحاول تنظيم هذه القوى بأسلوب جديد

ويحاول السنيور مادارياجا أن يعالج هذه الأسس التي يجب أن تقوم عليها ديموقراطية الغد، ويحمل بكل قوة ومنطق على النظم الطاغية التي تحاول أن تجعل الأمة فوق الفردية. وفي رأيه أن الدولة لا حق لها أن تجعل من نفسها نهاية مقصودة، وأن الفرد مرتبط حتماً بالمجموع، وأنه يجب وضع قاعدة للتوسط بين الحرية والسلطة

ثم يعالج السنيور مادارياجا بعد ذلك الوسائل الاقتصادية والاجتماعية التي يجب أن تتذرع الديموقراطية بها لتحقيق مبادئها

وقد أثار كتاب السنيور مادارياجا كثيرا من الاهتمام والتقدير في دوائر السياسة العليا، ودوائر عصـــبة الأمم التي يعتبر من أقطابها

المهرجان الألفي للمتنبي في المجمع العلمي العربي

أرسلت كتابة سر المهرجان رسائل الدعوة الى أشهر رجال العلم والأدب من الفرنجة والعرب والى الجامعات العلمية لترسـل من يمثلها في موسم المتنبي الذي يفتتح في اليوم الثالث والعشرين من شهر يوليه الحالي ويستمر الى آخره. وقد أخذت رسائل التلبيـة تتوارد الى المجمع العلمي فندبت الجامعة المصرية الأسـتاذ أحمد أمين ليمثلها رسمياً في المهرجان، وندبت الجامعة الأمريكية الأستاذ أنيس الخوري المقدسي لتمثيلها، وندبت الجامعة السورية الأستاذ الدكتور مرشد بك خاطر عضو المجمع العلمي لتمثيلها، وندبت جامعة عليكرة الهندية الأستاذ عبدالعزيز الميمني الراجكوتي. وسيمثل القطر المصري مع الأستاذ أحمد أمين الأستاذ عبد الوهاب عزام، ويمثل العراق الأستاذ طه الراوي عضو المجمع العلمي العربي وكاتب سر مجلس الأعيان، ويمثل لبنان الأستاذ الدكتور نقولا فياض، وفيلسوف الفريكة الأستاذ أمين الريحاني

عضوا المجمع العلمى العربى ، والأستاذ حليم دموس الشاعر المعروف ؛ وينوب عن جبل عامل الأستاذان أحمد رضا وسليمان ضاهر وكلاهما عضو المجمع العلمى العربى ، وينوب عن حلب الشهباء شاعرها الأستاذ عمر أبوريشة . ولا يتسع المجال لتعداد جميع ضيوف المهرجان من أعيان البيان

وقد قررت اللجنة العامة فى جلسة الاثنين المنصرمة أن يكون يوم ١٧ يوليه الحالى آخر يوم من الأجل المضروب لقبول الخطب والقصائد ، وذلك لكيما تتمكن اللجنة من تصنيفها وتوزيعها على أيام أسبوع المتنبى

واللجنة العامة تشكر المفوضية العليا على منحها مبلغ (٣٠٠) ليرة سورية اعانة للمهرجان ، كما تشكر مدير المعرض الصناعى الأستاذ عارف بك النكدى عضو المجمع العلمى لمساعدتها بمبلغ (٣٠٠) ليرة سورية ، وكما تشكر محافظ مدينة دمشق الممتازة الأستاذ توفيق بك الحيانى الذى قرر أن يسمى الشارع الجديد المجاور لدائرة التبليك باسم (شارع المتنبى) وذلك يوم افتتاح المهرجان

سجون سيبيريا

كانت سجون سيبيريا منذ الحكم القيصرى دائماً مثار الروع والرهبة ؛ وقد أوحت شناعتها وهولها إلى كثير من الكتاب الروس كتباً وفصولاً مؤثرة مروعة ؛ وللكاتب الروسى الأشهر دستويفسكى الذى قضى ردحاً من الزمن منفياً فى هذه السجون الهائلة كتاب ساحر مؤثر عنها اسمه « دار الموتى » يصف فيه هولها ، وما يقاسيه المسجونون فيها من ضروب العذاب والويل ، وقد نسى الناس اسم سيبيريا ونسوا سجونها مذ قام الحكم البلشفى فى روسيا ، ولكن الحقيقة أن السجون السيبيرية ما زالت جحيم المحكوم عليهم فى العصر الجديد كما كانت أيام الحكم القيصرى

وقد صدر أخيراً بالألمانية (وصدرت له ترجمة انكليزية) عن سيبيريا وسجونها الهائلة عنوانه « القرية المنسية » « Der Vergessene Dorf » ، بقلم ضابط ألمانى أيام الحرب الكبرى يدعى تيودور كروجر ؛ والكتاب مؤثر مروع معاً ، وفيه يقص مؤلفه كيف أسر فى الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ فى روسيا ، وكيف حاول الفرار فقبض عليه وسجن ؛ ويصف لنا المؤلف روعة هذا السجن الأول ؛ ويكفى فى وصف هوله أنه كان عائشاً فى الظلام الدامس ، وأن الماء القذر كان فى معظم الأوقات يغمره حتى كتفيه ، ثم أخذ الأسير الى سيبيريا مصفداً فى الأغلال الثقيلة ؛ وبعد حين أفرج عنه ، واستطاع أن يكتب الى ألمانيا وأن يستحضر بعض المال ؛ وهنالك ، فى منفاه الثانى تزوج من فتاة منغولية ، وتذوق بعض السعادة ؛ وساعد فى تنظيم مسألة الأسرى الألمان ، واستطاع أن يرتب لهم أعمالاً ، فاحترفوا الخياطة والنجارة والنقش وغيرها ، وأسسوا قرية صغيرة ؛ أما هو فاحترف تجارة الفراء ، وحسنت حاله ، ولكن الثورة البلشفية نشبت فى سنة ١٩١٧ ، فاضطربت الأمور ، ونسى الأسرى الألمان من العالم كله ، وهلك كثير منهم من الجوع والأوصاب وكان حظ المؤلف أتعس حظ ، فقد قتلت زوجه وولده بيد أحد أعدائه ، فى نفس الوقت الذى عقد فيه الصلح بين ألمانيا وروسيا

والكتاب ساحر مؤثر برغم روعة حوادثه ، وفيه يدلل المؤلف على معرفة وثيقة بأسرار النفس الروسية ، وأحوال سيبيريا المجهولة

مجلة المجلات العالمية

شعرت الصحافة الانكليزية أخيراً بحاجتها إلى التوسع فى معالجة المسائل الدولية ، بعد ما وصلت اليه من التشعب والتعقيد ، ولم يعد يكفى أن تعالج بصورة محلية ؛ وقد تصدى لتحقيق هذه المهمة صحفى وكاتب سياسى كبير هو المستر فرنون بارتلت ، الذى لبث زهاء عشرين عاماً مراسلاً سياسياً لكبريات الصحف الانكليزية ، والذى ما زال محرراً للشؤون الخارجية فى جريدة الديلى تلغراف ، فأنشأ مجلة سياسية كبرى تصدر كل شهر بعنوان « مجلة المجلات العالمية » World Review of Reviews ، وهى فى الواقع ادماج لمجلتين شهيرتين : الأولى « مجلة المجلات » التى أسسها الصحفى الكبير مستر ستيد فى سنة ١٨٩٠ ، ومجلة « العالم » التى أنشأها مستر بارتلت فى سنة ١٩٣٤ ، وستعنى المجلة الجديدة بمعالجة أهم الشؤون الدولية ، ومسائل عصبة الأمم التى يتفوق مستر بارتلت فى دراستها بنوع خاص ، وستكون مستقلة محايدة فى آرائها وتعليقاتها

وقد صدر العدد الأول من المجلة الجديدة مصدراً بكلمة للمستر انتونى ايدن وزير الخارجية البريطانية يقول فيها : « يسرنى

الكتب

رواية عمر بن الخطاب

تأليف الأستاذ معروف الأرناءوط

للدكتور منير العجلاني

أنا لا أصدق أن هذه التهاويل الثلاثة : الحب ، الطبيعة ، البطولة ، التي جمعها أستاذنا الأرناءوط فى كتابه الجديد « عمر ابن الخطاب » رواية ! ...

وإذا كان يحرص على أن يسمى « رواية » هذا العالم الذى أبدعه وشحنه بالأخيلة العجيبة والألوان النضرة والأنغام الحلوة فانى أستحلفه « بكريستيا » الذى يَنْحِتُ تمثاله ، و « فروة » الذى يقود رجاله ، و « نفتالى » الذى يندب آماله ؛ بل أستحلفه بهذه الغانيـة « بنيامينا » التى تسلب العاقل لبَّهُ ، والشجاع قَلْبَهُ ، وتنسى الوثنىَّ ربَّهُ ؛ بل أستحلفه بهذه الفتاة الصغيرة الخيِّرة «سافو» — شقيقة البدر وبنت السحر — أن يسمها رواية شعرية لا اجتماعية ولا تاريخية ، فانى نسيت الجماعات ونظمها ، والتواريخ وحكمها ، ورحت أنتقل على أجنحة كتابه من حجرة حب ، الى ساحة حرب ، ومن مأتم عبقرى ، الى عرس شعرى ، ومن صلاة الفجر الروحانية ، إلى مناجاة البخور الجثمانية ، وما أذكر أننى أحسست هـذا الحس الذى يكاد يكون مزيجاً من الصوفية واللذة إلا فى « خطبة مسينا » و « ايفجينى فى أوليس » و « بولس وفرجينى » و « أنا كارينين » و « البعث » و « أغانى بيليتس » و « بسيشه » وبعض أشعار « أوسكار ويلد » . . . وأشهد أن فى أستاذنا الأرناءوط من هؤلاء جميعاً ، فقد نسج على منوال يونان والغرب فجاء بشيء لم تألفـه العرب لأنه جديد . ولكنها لم تنكره لأنه جميل ، وصاحبه لا يتهم بالنقل ولا التقليد لأنه صانع مبتكر ، ومتى ذكر الشعر فهو فى دنياه

نعم « عمر بن الخطاب » قبسة من شعوره وقصيدة من شعره ، ولكنها لا تشبه هذه البرك التى تقاس بالشبر وتنظم على

أن أبعث بكلمة ترحيب لهذا المجهود الجديد الذى يرمى إلى تهيئة الفرصة للشعب البريطانى ليطلع على ما يكتبـه وتراه الشعوب الأخرى فى المسائل الدولية

حماية النسل فى روسيا

كان من نتيجة الأنظمة والقوانين الاباحية التى سادت روسيا البلشفية فى الأعوام الأخيرة ولا سيما فيما يتعلق بالزواج والعلائق الاجتماعية ، أن ذاعت حوادث الاجهاض ذيوعا مزعجا ، وأخذت تهدد كيان الأسرة والأمومة فى روسيا ؛ وقد تبينت حكومة موسكو أخيرا خطر هذه الاباحة على مستقبل الشعب الروسى ، فأصدرت قانوناً جديداً خاصا بحوادث الاجهاض يسرى مفعوله منذ ١٥ يوليو الجارى ؛ وخلاصة نصوصه أنه ا خلا الأحوال التى تتطلب فيها حالة المرأة الصحية اجراء عملية الاجهاض ، يحظر الاجهاض قطعاً ، ويعاقب الأزواج أو الآباء بعقوبات شديدة من السجن والغرامة إذا عاونوا على ارتكاب الاجهاض فى غير الحالة المصرح بها قانوناً

وينص نفس القانون على أن الأسر التى تضم ستة أولاد فأكثر تمنح إعانة من الحكومة ؛ وفى حالة الطلاق ، يلزم الوالد بدفع ربع مرتبه أو إيراده للزوجة إذا كان له منها ولد ، فاذا كان له ولدان فرض عليه الثلث ، وإن كان له منها ثلاثة أولاد فأكثر فرض عليه أن يدفع للزوجة نصف المرتب أو الايراد

وقد رأت روسيا السوفيتية أن تتشبه فى ذلك بالدول التى تعنى بمسألة النسل والاكثار من السكان مثل إيطاليا وألمانيا حيث تتخذ حماية الأمومة والنسل أهمية خاصة

أشكال هندسية بل هو نهر يجرى : يركض ويتباطأ ، يهبط ويصعد ، يستقيم ويلتوى ، ولكنه يذهب بعيداً . . . وفى مائه الرقراق يستحم الطير وتستنقع العذارى ، ويرتوى النعناع ، ويرف الحصى ، وبالجملة تحيا الحياة

أيهما أشعر ؟ البركة أم النهر ؟ « عمر بن الخطاب » أم الشعر ؟ ما أدرى ؛ ولعل الرواية — إذا كان عمر بن الخطاب رواية — أشعر من الشعر ! على أنَّ عمر بن الخطاب ونحن فى حديثه ، لم يعط الجزأين الأولين من الرواية أكثر من اسمه ... فهو عمر فى الأول كخطفة البرق ، ويهم فى الكتاب الثانى بالظهور . ولا تث تصغى اليه وتجلس بين يديه فى الكتابين الموعودين ، أما الآن فأنت فى عالم الحب ؛ فلا تقل وقد استنمت إلى أنغامه المدهدهة أين نحن من دنيا ابن الخطاب ؟ وما علاقتنا به ؟ عما قريب تلتفت إلى « سافو » التى لم تكن تعرف من العرب إلا حبيبها ، فتسمعها تحدثك عن رعاة الغنم ، الذين ملكوا رعاة الأمم ، والبدو الذين علموا الحضارة الحضر . . . والعقيدة التى غلبت القوة ، وحينئذ تدرك السرَّ الذى نشده الأستاذ الأرناءوط ، فهو يريد أن يقفنا فى هذا الصراع القائم بين العرب والرومان على لونين من الحب : حب السماء وحب الأرض ، وعلى رسالتين : رسالة العاشق ، ورسالة المجاهد ؛ وعلى دولتين : دولة الطبقات ، ودولة المساواة ، وإذا كان فى الأدب الفرنسى كتاب أسماه صاحبه — شاتوبريان — « عبقرية النصرانية » وأراد أن يعرض فيه دينه فى أحسن معرض ، فانه يخيل إلىَّ أن الأستاذ الارناءوط سائر فى هذه الطريق. فما « سيد قريش » و « عمر بن الخطاب » إلا فصول فى كتاب سنطلق عليه ذات يوم اسم « عبقرية الاسلام » أو إذا شئت « عبقرية العروبة »

أيها القارئ ! ضع شارة تحت جملة بارعة فى الجزء الأوَّل من « عمر بن الخطّاب » « أىّ قدر سعيد ألقاك فى طريقِ يا من يهيمن على حياتى ؟ » فانه قدر سعيد حقاً .. أن تعيش فى عالم « كريستيا » و « بنيامينا » و « سافو » و « فروة » و « نفتالى » ، قدرٌ سعيد أن تعيش تحت سماء « كأنها لفرط الضياء جنة من اللؤلؤ » وأن ترى الى « كريستيا » يلتمس حبيبته فى الحلم ولكنه « لا يجرؤ أن يمس وهو سادر فى وهمه جمالها المترنح مخافة أن تفوته لذة هذا الوهم » وأن تستمع إليه ينشد بين يديها : « لقد رأيتك فى ذات ليلة أمام المرآة تريقين على جسدك العارى عطور النارنج ، ورأيتك تغسلين فخذيك الناعمتين بعطر الورد ، ثم رأيتك تصبين على نهديك عطوراً حملها إليك محبوك من مصر وفينيقية والشام ، فوددت لو أنك تبدلين طيوبك بطيب آخر لم تحفل بمثله أرض فينيقية ذات السماء المصحية ، ولا جنات مصر الضاحكة على ضفاف النيل ... بطيب انبعثت رائحته فى نفسى » . . . ثم اخرج من عالم الحب الى عالم البطولة وانظر الى « فروة بن عمرو » يعلق على الصليب فى سبيل الرسالة ، واستمع الى أغانيه العلوية ! ...

ولكن ما أكثر الصور والألوان الحلوة فى هذا الكتاب ؟ بل أية صورة أستطيع أن أقول إنها أقل جمالاً من غيرها فأزهد فى نقلها ؟ !

***

مطالع الكتاب كله وفى مبى

بورك فيك يا أستاذنا الأرناءوط ! بورك فيك ثلاثاً باسم الحب وباسم الشعر وباسم البطولة ... وبورك فيك باسمنا نحن الذين وهبت لنا ساعات لذيذة ودنياوات حلوة

أى مؤلف « عمر بن الخطاب » !

سوف ألقاك فأراك غير ما كنت أراك لأنك ستسير دائماً فى موكب من الأبطال الذين بثت فيهم الحياة . وسنشعر جميعاً أن روحك ليست غريبة عن روح أبطالك ، فلولا أن سكبت فيهم من قلبك ومن فكرك لما كان كتابك خالداً

إن حياة كتابك من كتاب حياتك

حياتك الشاعرة !

منير العجلانى
رئيس تحرير القبس

وراء البحار

تأليف محمد أمين حسونه

بقلم محمود عزت موسى

أتيح لى منذ أيام أن أقرأ الكتاب الذى ألفه وأصدره أخيراً صديقى الأستاذ محمد أمين حسونه وأسماه « وراء البحار » ؛ وفى هذا الكتاب رحلة المؤلف إلى اليونان وتركيا ورومانيا والنمسا والمجر ، وقد عنى بطبعه عناية فائقة فجاء مثالا بديعاً للذوق الرقيق . وليست هذه هى المرة الأولى التى أتيح لى فيها أن أقرأ للأستاذ حسونه ، فأنا أقرأ له منذ صدر حياتى الأدبية ، وقد التقت أقلامنا على صفحات السياسة الأسبوعية فى عام ١٩٢٩ وفى ذلك الحين أيضاً التقت صداقتنا ؛ ولقد قرأت له كتابه الأول « أشبال الثورة » ، وهى الرواية التى استهل بها أدبه القصصى ، ثم قرأت له « الورد الأبيض » ، وهى المجموعة القصصية التى جملته فى طليعة أدباء الشباب ، ولعلى استطعت من خلال تلك القراءات كلها أن أتعرف إلى أسلوبه وأدبه ، ومن أجل هذا كنت أود أن أنصف الأستاذ حسونه أكثر مما أنصف نفسه هو فأقول بأن كتابه « وراء البحار » ليس فى الواقع إلا قصة طويلة لحياة شاعر فى خلال رحلة فنية إلى بلاد تاقت نفسه اليها .. واستقرت عواطفه فى أجمل بقاعها ، فراح يصفها لا بلغة المسافر ، ولكن بلغة الشاعر ، فلم يذهب فيما ذهب اليه الذين سبقوه فى وصف رحلاتهم ، ولكنه انتحى لنفسه منحى غير الذى ألفه الناس فيما قرأوا .. فلم يحاول أن يكتب عما شغل غيره من كتاب الرحلات فى الأوصاف التى يمكن للانسان أن يجدها بسهولة فى كتب السياحات ، ولكنه ذهب إلى تلك البلاد حاملاً بين جنبيه تلك النفس الطامحة المضطرمة شباباً ونشاطاً ، فتبدو فى بعض الصفحات مشبوبة حارة ملتهبة تفيض خيالاً وعذوبة ، والتى تغزوها الآلام والأحزان فتبدو فى انقباضة القلق الحائر . وإنه ليحلو لى أن أصف نفسية الكتاب ، ولا أتناول فصوله فصلاً فصلاً تناول الذى يمسك مبضعه ليقيم نفسه جراحاً — أو جزاراً — على عمل أدبى ، يحلو لى أن أصف نفسية الكتاب لأننى أعتقد بأنى قد ألفيت فيه وحدة فنية قائمة بذاتها ، ترتكز على شخصية واحدة ، هى شخصية المؤلف ؛ وهذه الوحدة الفنية تجعلنى أرى أن المؤلف إنما عمد إلى رحلته بدافع الاستمتاع الذهنى والقلبى فى وقت واحد ، فوفق . ولم تذهب هذه الشخصية عنه فى أية لحظة ، بل هو يصفها بدافع الاعجاب ، ولكن بشخصية ، أو بمعنى آخر بقومية ، ومن هنا ترتقى مكانة الكتاب عندى ، لأنه يقول فى معرض حديثه عن الأكروبول . . . « ولكن أين ربوات الأكروبول من ساحل طيبة الخالد على مر الدهور ، أو من مهابة الأهرام ومعابد الكرنك وقصور فيلى ؟ تلك الكاتدرائيات الفرعونية العظيمة التى شيدتها ونقلت جلاميدها الصخرية الهائلة الأيدى السحرية العجيبة . . . . » أو عند ما يذكر « أذكر أنى قابلت فى أحد المطاعم (فى أثينا) جندياً فى الجيش كاد يبكى وهو يحدثنى بالعربية فى السعادة التى تنعم فى اعطافها يوم أن كان يعمل « جرسونا » بمقاهى القاهرة الكبرى . . . . » « ويستطرد فى القول » . . . وأحسب أنه نتيجة عطف أولته مصر لأبناء هذه البلاد منذ انبثق فجر التاريخ . فقديماً لقنهم المصريون أسرار الحكمة وأصول التشريع وزودوهم بأساحة من العلم واستقامة الفهم ، فذاناؤس وككرلس وفيثاغورس شهب ثاقبة فى سماء الثقافة الأغريقية ، لكنهم لم يزيدوا على أن يكونوا مصريين .. » وكما يبدو فى حديثه عن الاسلام وسلاطين آل عثمان فى خلال وصفه لاستامبول ، وهذه الظاهرة الفريدة فى الكتاب تجعلنى أسجلها مغتبطاً

قد كنت أوثر أن يحدثنا — فوق ذلك — الأستاذ حسونه عن تلك البقاع التى زارها أحاديث تتناول صميم الحياة هنالك ، عن وسائل رقيهم ، وصناعاتهم ، ونظم الجمعيات العامة فيها ، والروح الفردية فى تلك الأمم ، ونواحى الضعف فى جماعاتهم ، وأسبابها ، والظواهر التى يلمحها فى أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وان يتناول بالبحث الانقلاب الكمالى من جذوره فى زيارته لتركيا ليصف ويقرر الحقائق التى لا يمكن للقارئ أن يجدها فى الصحف لاعتبارات شتى ، وأحسب أنه قد لمح الى ذلك تلميحاً خفيفاً فهل فعل ذلك عن عمد ؟ أحسب ذلك . ولكننى أرجو أن يوفق الى ذلك فى كتابه المقبل ، فى صراحة تامة ؛ فبلادنا فى عصر نهضة ، ولكن حطب هذه النهضة ، وكلما زدناها ناراً ازدادت اشتعالاً ونوراً وارتفاعاً ، ولن يكون ذلك إلا إذا أفرغنا فى سبيلها الجهد كل الجهد وعنينا بتوضيح كل ما يفيد هذه النهضة ويوطد دعاماتها ؟

محمود عزت موسى